

اليمن: نزع فتيل الأزمة في صعدة

تقرير الشرق الأوسط رقم 86 – 27 مايو/أيار 2009

جدول المحتويات

I.....	ملخص تنفيذي وتوصيات	I.....
1.....	مقدمة	I.....
4.....	جذور الحرب	II.....
5.....	أ. من هم الحوثيون؟	
5.....	ب. توازن مختل	
6.....	ج. أزمة داخل الزيدية	
8.....	روايات متضاربة	III.....
8.....	أ. رواية الدولة	
11.....	ب. رواية الحوثيين والإحيائيين الزيديين	
11.....	صراع مستفحل	IV.....
12.....	أ. شكاوى متزايدة وتورط قبلي متعاظم	
13.....	ب. حرب للخلافة؟	
14.....	ج. بروز اقتصاد الحرب	
15.....	د. تدخل أجنبي مُفترَض	
16.....	هـ. صمت غربي	
17.....	مساعي الوساطة	V.....
17.....	أ. لجان الوساطة القبلية والسياسية	
19.....	ب. وساطة قطر	
21.....	ج. لجان إعادة الإعمار	
23.....	إحلال سلام دائم	VI.....
23.....	أ. ردم الفجوة الطائفية	
23.....	ب. إعادة استيعاب الحوثيين في السياسة	
24.....	ج. تشجيع مبادرات المجتمع المدني	
25.....	د. دور دولي جديد	
26.....	خلاصة	VII.....
	ملاحق	
29.....	أ. خريطة اليمن	
30.....	ب. اليمن بمحافظاته ومدنه	
31.....	ج. خريطة لمديريات محافظة صعدة	

اليمن: نزع فتيل الأزمة في صعدة ملخص تنفيذي وتوصيات

الممارسات والشعائر إلى السننية منها إلى الشيعة الاثني عشرية السائدة في إيران والعراق – والسننية الشافعية.

توسعت الحرب لأنها باتت عالماً مصغراً لسلسلة من التوترات الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية والدينية. ويمكن أن يتبع الدارس أصولها إلى انحطاط البنية الاجتماعية التي قادها الهاشميون، الذين يدعون أنهم يعودون بنسبهم إلى النبي محمد والتي أضيفت عليها الشرعية من خلال الزيدية؛ وغياب الاستثمارات عن معقل الزيديين، مثل صعدة؛ والنواقص في إدارة التعددية الدينية؛ والقابلية للنفوذ الخارجي ونشوء لاعبين سياسيين ودينيين جدد، خصوصاً السلفيين. وقد اتخذ هذا الصراع في أحيان كثيرة وفي نفس الوقت أشكال صراع طائفي، أو سياسي أو قبلي يتجذر في المظالم التاريخية وغياب التنمية الذي بات يشكل آفة مستوطنة مزمنة. كما تسهم في تشكيل هذا الصراع جزئياً المواجهة الإقليمية بين السعودية وإيران.

في عام 1962 وضعت الثورة حداً لنظام الإمامة الذي حكمه الهاشميون لأكثر من ألف عام وقلبت النظام الاجتماعي الذي ارتبطوا به على نحو وثيق. وخلال الحرب الأهلية التي تبعت، كانت صعدة هي المعقل الرئيسي للمعارضة. ومنذ ذلك الحين، تعرضت المنطقة للإهمال والتهميش على نطاق واسع. وعاد البعد الديني الذي كان قد أدير بنجاح ولفترة طويلة من الزمن إلى الظهور على السطح من جديد. رغم اختلافهما حول عدد من القضايا اللاهوتية والسياسية، فإن الزيدية والشافعية قريبتان من بعضهما البعض في المنظور العقائدي. خلال العقود القليلة الماضية، ضاقت الفجوة بينهما أكثر بفضل الجهود التعليمية التي بذلتها الدولة، ونعمت اليمن بالانسجام الطائفي. غير أنه بقي هناك عدد من الأشخاص الداعين إلى إحياء الزيدية، بمن فيهم الحوثيين، الذين قاتلوا للمحافظة على المنظومة الدينية الزيدية وشعائرها الرمزية. وانبعثت الحيوية بينهم نتيجة تنامي النفوذ السلفي القادم بشكل رئيسي من السعودية، وشعورهم بأن ثمة حصاراً يُفرض على الزيدية. وينظر بعض القادة السابقين ودعاة إحياء الزيدية إلى الجمهورية على أنها بشكل أساسي معادية للهاشمية والزيدية.

وثمة بعد أجنبي أيضاً، رغم أنه يصعب تقييمه. فكما تتهم الحكومة المتمردين بالتحالف مع إيران والولاء لحزب الله اللبناني، فإن القادة الحوثيين يدينون تحالفها مع الولايات المتحدة. كما أنهم يتهمون السعودية بالتدخل، وخصوصاً من خلال دعمها المالي للحكومة والقبائل المحلية.

بعيداً عن عناوين وسائل الإعلام، فإن ثمة حرباً تثار حيناً وتخبو حيناً في محافظة صعدة الشمالية منذ عام 2004، وتشتعل أحياناً في مناطق مجاورة، إلى أن وصلت في عام 2008 إلى محيط العاصمة صنعاء. يدور الصراع، الذي أدى إلى دمار كبير، بين مجموعة من المتمردين، تعرف بالحوثيين، وقوات الحكومة. وثمة مخاطرة في أن تكون الهدنة القائمة الآن قصيرة الأجل.

من شأن أي انقسام أن يهدد استقرار اليمن، الذي يعاني أصلاً من ضغوطات شديدة بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية، وتلاشي الموارد الوطنية، والتوترات المتجددة بين النخب الشمالية في البلاد وسكان المنطقة الجنوبية والتهديدات التي مصدرها مجموعات عنيفة ذات صلات مختلفة بالقاعدة. وقد لا تبقى آثار هذا الصراع محصورة ضمن الحدود الوطنية. ينبغي أن تستعمل البلاد أدواتها التقليدية - التسامح الديني والاجتماعي، واستيعاب الخصوم - لتشكيل ميثاق أكثر شمولاً يزيل الوصمة المرتبطة بالانتماء إلى بعض الطوائف ويستوعب الحوثيين. وينبغي أن يستعمل اللاعبين الدوليون - وبشكل رئيسي دول الخليج والغرب - نفوذهم وأن يعيدوا بالمساعدة في عمليات البناء وإعادة الاعمار للضغط على الحكومة والمتمردين على حد سواء للتوصل إلى تسوية.

بعد عقدين من الاستقرار النسبي الذي حير الدبلوماسيين الأجانب والمحليين على حد سواء، فإن ظهور عدد من التحديات في وقت واحد يشكل اختباراً لقدرة النظام على التكيف والتحمل. قد لا يكون الصراع في صعدة قد حظي بتغطية إعلامية واسعة على المستوى الدولي، غير أنه ينطوي على مخاطر كبيرة على التوازن السياسي، والطائفي والاجتماعي في اليمن.

بدأت الحرب على شكل عملية للشرطة لاعتقال العضو السابق في البرلمان حسين بدر الدين الحوثي. وعلى مدى خمس جولات تضاعفت عدة مرات وأصبحت أكثر تعقيداً واتساعاً. فمع تراكم المظالم والإساءات وارتفاع عدد الضحايا، وتغلغل الصراع، مجتذباً عدداً أكبر من اللاعبين باستمرار، بما في ذلك القبائل المحلية وأعداد متزايدة من سكان صعدة، فقد بات يغطي منطقة تتسع باستمرار ويشارك فيه لاعبون أجانب على خلفية حرب إقليمية باردة. وقد قوضت هذه الحرب دعامتين رئيسيتين من دعائم الاستقرار في اليمن، وهما الصيغة السياسية التي تستند إلى تقاسم السلطة والاندمج التدريجي للطائفتين الرئيسيتين في البلاد وهما الزيدية - وهي شكل من أشكال الشيعة الأقرب من حيث

من ذلك التعهد بتقديم مساعدات لإعادة الاعمار كحافز على تحقيق السلام. ومن حيث المدة، والكثافة، والتحمل الطائفي، والبعد الإقليمي، فإن صراع صعدة يختلف عن أحداث العنف الأخرى في اليمن. وهكذا فهو بحاجة إلى أكثر من جهود محلية ودولية عادية لإنهائه.

التوصيات

للحكومة اليمنية وقادة المتمردين:

1. اتخاذ خطوات فورية لمنع تجدد الأعمال الحربية من خلال ما يلي:
 - أ. الانخراط في محادثات مباشرة؛
 - ب. الموافقة على تشكيل لجنة للتوسط وإعادة الاعمار تتكون من مسؤولين حكوميين، وممثلين عن المتمردين واللاعبين الدوليين (مثل الحكومات المانحة والمنظمات الدولية)؛
 - ت. المساعدة في تأمين العودة الآمنة لأولئك الذين أدت الحرب إلى نزوحهم خلالها؛
 - ث. السماح بوصول الدبلوماسيين والصحفيين والمنظمات الخيرية ومنظمات حقوق الإنسان إلى المناطق المتأثرة بالحرب.

للحكومة اليمنية:

2. معالجة مظالم السكان والمتمردين من خلال:
 - أ. إجراء مسح بالأضرار في المناطق المتأثرة بالحرب بمساعدة خبراء وطنيين ودوليين مستقلين لتيسير توزيع التعويضات وإعادة الاعمار؛
 - ب. إطلاق المشاريع التنموية في محافظة صعدة والمناطق المتأثرة بالحرب؛
 - ت. التوقف عن تجنيد ونشر الميليشيات القبلية وغيرها؛
 - ث. إطلاق سراح السجناء المحتجزين في سياق الحرب، وإعلان العفو عن المتمردين، ووقف الاعتقالات العشوائية للصحفيين، ونشطاء حقوق الإنسان، والباحثين المستقلين.
3. الحد من التوترات الطائفية وغيرها من خلال:
 - أ. تشجيع وتسهيل الحوار والتبادل بين الطوائف، بما في ذلك تعزيز مشاركة الزيديين في النقاشات العامة؛
 - ب. إدانة التمييز الطائفي ضد الهوية الهاشمية وتيسير دخول الهاشميين المؤهلين في مؤسسات الدولة.

لقادة المتمردين:

4. إطلاق سراح الجنود الحكوميين والأشخاص الآخرين المحتجزين في سياق الحرب؛
5. توضيح المطالب السياسية كخطوة نحو التحول إلى حزب أو حركة سياسية.
6. القبول الواضح بسيادة الدولة في محافظة صعدة والمناطق الأخرى التي يتواجد فيها المتمردين.

لمنظمات المجتمع المدني:

7. توفير الدعم والمشاركة لعملية التوسط، وتقييم الأضرار، وجهود إعادة البناء في المناطق المتأثرة بالحرب.

إذا كان التاريخ قد ترك ندوباً، فإن الحرب قد نكأت الجراح. إن تدمير قرى بأكملها وتخريب البنى التحتية بسبب قصف الجيش لها، إضافة إلى القصف الجوي والعنف العشوائي الذي يمارسه الجيش والسلطة لم يؤد فقط إلى زيادة المظالم التي يشعر بها الهاشميون بشكل عام، ودعاة إحياء الزيدية بشكل خاص، بل المدنيين إجمالاً في جميع المحافظات الشمالية. ويثير المتمردون الغضب بسبب الأعمال الوحشية وعمليات النهب والاختطاف. كما تسهم المشاركة المتنامية للميليشيات القبلية إلى جانب الحكومة أو قوات المتمردين في إهاب الصراع وإطالة أمده. تتنافس القبائل المتخاصمة وزعمائها على المناصب والموارد؛ وفي حين تتعرض بعض المجموعات للتهمة، فإن بعضها الآخر يتلقى مساعدات حكومية مقابل محاربة المتمردين.

لقد بات الصراع يديم نفسه، مؤدياً إلى نشوء اقتصاد حرب حيث اعتمد رجال القبائل، وضباط الجيش، والمسؤولون الحكوميون الفرصة للسيطرة على الحدود السالكة مع السعودية وساحل البحر الأحمر. لقد راكم زعماء القبائل والمسؤولين الكبار العناد العسكري والأرباح من المبيعات غير الشرعية للأسلحة. وبانت العمليات المستمرة مبرراً لزيادة الموازنات العسكرية دون وجود إشراف يذكر من قبل الحكومة أو جهات مستقلة. ومع اشتداد المنافسة على الموارد، فإن مزايا الحرب فاقت مساوئها - على الأقل بالنسبة للنخب المشاركة فيها.

مع بعض الاستثناءات، فإن المجتمع الدولي لم يعترف بالقدرة الكامنة لصراع صعدة على زعزعة الاستقرار ولم يضغط على الحكومة لتغيير سياستها. ومرد ذلك جزئياً إلى أن الغرب يركز بشكل حصري على صراع اليمن مع القاعدة وتصوير النظام للحوثيين على أنهم مجموعة فرعية في الحرب على الإرهاب. ويتعلق الأمر أيضاً برفض النظام السماح للعديد من المنظمات الإنسانية والحكومات، إن لم يكن معظمها، بالوصول إلى صعدة.

تراجع القتال مع إعلان الحكومة وقف إطلاق نار من جانب واحد في تموز/يوليو 2008. غير أن من المرجح أن يكون هذا توفقاً أكثر منه نهاية للقتال. يتوقع المراقبون واللاعبون على حد سواء موجة جديدة من العنف؛ فقد شهدت الشهور الأولى من هذا العام تجدداً للقتال في مناطق محلية. وليس هناك اتفاق واضح بين الأطراف، وتبقى المظالم المتراكمة إلى حد بعيد دون علاج، ويبقى التوتر مرتفعاً، وتتطلب مناقشات بين الحين والآخر، ويبدو أن عدداً محدوداً من الأطراف الرئيسية المتحاربة مستعد للتسوية. وقد فشلت محاولات التوسط على نحو متكرر، ولاقت محاولة قطر ذات النوايا الطيبة المصير ذاته.

غير أن تجدد الحرب ليس أمراً محتوماً؛ إذ يمكن للاعبين المحليين والوطنيين والدوليين أن يفعلوا الكثير مما يمكن أن يمهد الطريق لتحقيق سلام دائم. وتتوافر كافة الأسباب التي ينبغي أن تدفع هؤلاء للتدخل قبل أن يحدث مزيد من الضرر وللبناء على عوامل القوة الرئيسية في اليمن، والتي تتمثل في النزعة التقليدية للتسوية بين المجموعات السياسية، والاجتماعية، والدينية وتوجه الدولة لاستمالة الخصوم السابقين. وينبغي أن تكون المساعدة الدولية متعددة الأطراف، بحيث تشارك فيها البلدان الغربية وبلدان المنطقة المستعدة لممارسة الضغوط الدبلوماسية والتوسط، والأهم

8. تشجيع الحوار بين الحكومة وقادة المتمردين.

للحكومات الغربية المانحة:

9. الضغط على الطرفين لإنهاء الصراع والمشاركة في جهود الوساطة.
10. الإصرار على الوصول الكامل للمناطق المتأثرة بالحرب بالنسبة للدبلوماسيين، والصحفيين، والمنظمات الخيرية ومنظمات حقوق الإنسان.
11. التعهد بتقديم المساعدة في إعادة الإعمار لتطوير محافظة صعدة كحافز على التوصل إلى اتفاق سلام دائم.

لبلدان المنطقة:

12. التعهد بتقديم الدعم الدبلوماسي إضافة إلى المساعدة في مجالي التنمية وإعادة الإعمار في المناطق المتأثرة بالحرب.
13. الامتناع عن تقديم أي مساعدة عسكرية أو مالية تقدم لأطراف الصراع، بما فيها القبائل، أو الميليشيات المسلحة، وإدانة مثل هذه المساعدات.

صنعاء/بروكسل، 27 أيار/مايو 2009

اليمن: نزع فتيل الأزمة في صعدة

I. مقدمة

وفاته، لهي جزء من مجموعة زيدية إحيائية أكبر وأكثر تنوعاً². يقول أفراد العائلة الحوثية تحدرهم من سلالة النبي محمد وبالتالي يعتبرون أنفسهم سادة هاشميين³. قُبلت ثورة عام 1962 في اليمن الشمالي، التي أنهت حكم الأئمة الزيديين وأدت إلى قيام الجمهورية، سيطر الهاشميون على مقاليد السياسة والدين معاً؛ وكان حكام اليمن الشمالي من الأئمة خلال تلك الفترة من الهاشميين حصراً⁴. واليوم تقول الأسرة الحوثية فاقدة السلطة أنها تدافع عن الهوية الزيدية ضد الذوبان في الهوية الإسلامية السنية الأوسع انتشاراً؛ وتحشد الدعم لنفسها بتبني مواقف معادية للولايات المتحدة وإسرائيل واليهود أحياناً. تتهمها الحكومة بتلقي دعم إيراني ومحاولة إعادة نظام الإمامة، على الرغم من عدم وجود أدلة دامغة على ذلك.

تشير التقارير إلى أن الصراع قد انفجر عام 2003 حين قامت مجموعة من "الشباب المؤمن" بالهتاف "الله أكبر! الموت

على امتداد العقدين المنصرمين، صوّر الدبلوماسيون والمحللون اليمن بانتظام وكأنه على حافة الانفجار. لكن، ولدهشتهم، فقد استطاع ذلك البلد البقاء مستقراً إلى حد بعيد، وتمكن من تفادي أعمال عنف واسعة النطاق وإدارة أزمات متعددة في وقت واحد، بما في ذلك توحيد الشمال والجنوب عام 1990، وإعادة استيعاب نحو ربع القوة العاملة حين واجه العمال اليمنيون المهاجرون تهديداً بالترحيل من دول الخليج عام 1991، والمحاولة الانفصالية عام 1994 التي قام بها ما كان يُدعى اليمن الجنوبي، إضافة إلى المعركة الدائرة مع تنظيم القاعدة ومنتسبيه منذ عام 2000.

تبدو تلك المرحلة على وشك الانقضاء، فاليمن اليوم يواجه، في آن واحد، أزمات سياسية واجتماعية يزيد من تفاقمها الانهيار الاقتصادي العالمي. ويعكس القمع المحلي المتزايد بذريعة مكافحة الإرهاب شعوراً متنامياً بالقلق لدى الدولة. وفي غضون ذلك، تتطرق المظاهرات الحاشدة فيما كان يُعرف باليمن الجنوبي، حيث المشاعر الانفصالية أخذت في التنامي¹. وأخيراً، فهناك النزاع في صعدة، الذي عجزت الحكومة عن وضع حد له بمفردها. إن كلاً من هذه التطورات لهي مدعاة للقلق في بلد كان، لِعقد مضى فحسب، منخرطاً في عملية ديمقراطية واعدة ومثيرة للإعجاب. ومن بين كل ما سبق ذكره، فإن الحرب في صعدة بين الجيش ومجموعة متمردة تطلق على نفسها اسم "الشباب المؤمن" هي الأكثر خطورة وفتكاً.

² الزيدية فرع من الشيعة يتميز عن الجعفرية (الشيعة الاثني عشرية السائدة اليوم في إيران والعراق والبحرين، وعلى نحو أقل في لبنان والسعودية). ظهرت الزيدية بادئ ذي بدء في بلاد الرافدين وآسيا الوسطى عام 740 ومن ثم انتقلت تدريجياً نحو الجنوب حتى وصلت اليمن. تدعي النخبة الدينية للطائفة تحدرها من سلالة النبي محمد، حيث حكمت أقاليم اليمن الشمالي تحت نظام الإمامة حتى ثورة عام 1962. تشير التقارير إلى أن الزيديين يشكلون حوالي ثلث سكان اليمن البالغ عددهم 25 مليون نسمة، أكثرهم شافعيون ينتمون إلى المدارس التقليدية الأربعة للفقه السني السائد في مصر على سبيل المثال. يتركز الزيديون في المناطق الجبلية في شمال غرب البلاد، وتوجد أقوى معقلهم في صعدة وحجة وذمار إضافة إلى العاصمة اليمنية صنعاء.

³ يتحدر الهاشميون من أسرة النبي، ويتحدر أفراد العائلة الحوثية من فرع هاشمي مغاير لذلك الذي تنتسب إليه العائلة الملكية الأردنية الحالية. ليس جميع الهاشميين اليمنيين زيديين، بل إن بعضهم سنيون. أما في هذا التقرير، وما لم تتم الإشارة إلى غير ذلك، فإن كلمة الهاشميين سيشار بها إلى الهاشميين الزيديين.

⁴ توحد اليمن الشمالي مع اليمن الجنوبي بتاريخ 22 أيار/مايو 1990 لتكوين الجمهورية اليمنية. حتى ذلك الحين، ظلت مسارات التطور في الكيانين منفصلة. حصل اليمن الشمالي، الذي يبلغ تعداد مواطنيه نحو ثلاثة أرباع سكان اليمن، على استقلاله الرسمي عام 1918 بعيد زوال حكم الإمبراطورية العثمانية، وتولى حكمه الأئمة الزيديون حتى قيام ثورة 1962 التي أدت إلى نشوء الجمهورية العربية اليمنية. أما الجنوب، الذي استعمرته بريطانيا العظمى منذ عام 1838، فقد نال استقلاله عام 1967، وبات يُعرف باسم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بوصفه دولة اشتراكية وحليفة للاتحاد السوفيتي. انظر بول دريش، "تاريخ اليمن المعاصر" (كمبريدج، 2000).

أصبحت محافظة صعدة الجبلية، الواقعة شمال غرب اليمن على الحدود مع المملكة العربية السعودية، مسرحاً لصراع مسلح وحشي منذ شهر حزيران/يونيو 2004. وتتعاظم الاحتمالات بامتداد هذه الحرب إلى المناطق المحيطة، بما في ذلك محافظات عمران والجوف ومأرب والحجة.

إن الحركة المتمردة، التي قادها أولاً حسين بدر الدين الحوثي، العضو السابق في البرلمان، ومن ثم تسلم قيادتها أحد أنسابه بعد

¹ ردت قوات الأمن بقمع متزايد على الاحتجاجات التي ارتفعت حدثها. ففي نيسان/أبريل 2009 أدت التظاهرات في ردفان إلى سقوط ثمانية قتلى. كما أن التوتر المتصاعد دفع بالحكومة إلى إيقاف سبع صحف بشكل مؤقت، بما في ذلك صحيفة "الأيام" اليومية الواسعة الانتشار. أنظر "نيويورك تايمز"، 4 أيار/مايو 2009، مقالة ستيفن داي "تطوير الوحدة الوطنية اليمنية: هل يمكن أن تطيح الانقسامات الإقليمية المستمرة بالنظام؟"، *Middle East Journal*، الجزء 62، رقم 3 (2008).

بيد أن معظم المسائل بقيت بدون حل، بما في ذلك المظالم الطويلة الأمد والجديدة منها، من قبيل قضية السجناء المحتجزين لدى كلا الطرفين.

بدأت الجولة الثانية، التي وقعت ما بين شهري آذار/مارس و أيار/مايو 2005، بسلسلة من الاتهامات والانتهاكات المضادة، حيث اتهمت الحكومة والد حسين، بدر الدين الحوثي، إضافة إلى عضو البرلمان السابق عبد الله الرزامي، بالسعي لاستئناف التمرد. انتقد بدر الدين عدم استعداد صالح لإنهاء النزاع ورد قائلاً إن هدف ابنه حسين كان الدفاع عن الإسلام فحسب.¹⁰ اتهم صالح المعارضة، وبالأخص حزبيها ذوي الأصول الزيدية، حزب الحق (الذي كان حسين الحوثي وعبد الله الرزامي عضوين فيه) وحزب اتحاد القوى الشعبية، بدعم المتمردين.¹¹ ومن ثم بدأت الحكومة بتصوير الحوثيين كإرهابيين مسؤولين عن هجمات صغيرة ضد مسؤولين وجنود في صنعاء وادعت قيامهم بالتخطيط لاختطاف سفراء أجانب.¹² وقعت هجمات أشد ضراوة إلى الشمال والغرب من صنعاء، في مديريات مجز وسحار وباقم، حيث لاقى المتمردون دعماً وساهمت التضاريس الجبلية في إعاقة تقدم الجيش.

وبرغم ادعاء الحكومة النصر وإعلانها نهاية للعمليات القتالية في أيار/مايو 2005، فقد استمر القتال على نحو أقل حدة، مما أدى في نهاية المطاف إلى وقوع الجولة الثالثة والتي استمرت من أواخر عام 2005 حتى أوائل 2006. وقد بدأت هذه الجولة على شكل مواجهة بين رجال القبائل الموالية للحكومة (المنتمي بعضهم إلى قبيلة حمدان بزعامة الشيخ عبدالله العوجري)، وبين مقاتلين قبليين يدعمون المتمردين، مما أوحى أن العداوات القبلية قد بدأت تأخذ دوراً أكبر بالتدرج، كما شهد هذا القتال ظهور أخوي حسين الحوثي، عبد الملك ويحبي، كزعيمين جديدين للمتمردين.¹³ واجهت الحكومة ضغوطاً كبيرة لتسوية الصراع حتى وإن على نحو مؤقت قبيل الانتخابات الرئاسية والمحلية عام 2006، فقامت بإطلاق سراح عدد من السجناء، (بمن فيهم أحد أشقاء حسين الحوثي)، وقام الرئيس بتعيين محافظ جديد لصنعاء، يحيى الشامي، الذي يُنظر إليه بوصفه أكثر تساهلاً من سلفه. كان من شأن هذه الخطوات، التي أوحى برغبة الحكومة في التوصل إلى حل سلمي، أن أدت إلى تعليق مؤقت للنزاع.

وبحسب الحكومة وحلفائها القبليين، فإن الجولة الرابعة (شباط/فبراير - حزيران/يونيو 2007) جاءت نتيجة تهديدات أطلقها الحوثيون ضد

لأمريكا! الموت لإسرائيل! اللعنة على اليهود! النصر للإسلام!⁵ وذلك في مسجد بمدينة صنعاء وبحضور الرئيس اليمني.⁶ وإثر عدة محاولات فاشلة للوساطة بين علي عبد الله صالح وحسين الحوثي، وفي ضوء استمرار التظاهرات - بما فيها تلك التي وقعت في الجامع الكبير في العاصمة - سعت الحكومة في حزيران/يونيو 2004 لاعتقال الحوثي في معقله بناحية حيدان في محافظة صنعاء. وتلا ذلك اندلاع القتال الذي استمر حتى قام الجيش القضاء على الحوثي بتاريخ 10 أيلول/سبتمبر 2004.⁷

لم يضع ذلك حداً للنزاع، بل امتدت الحرب لأربع جولات إضافية، متركة جميعها في محافظة صنعاء، وكل جولة أشد ضراوة من سابقتها في حين استمرت أعمال القتال الأقل شراسة بين جولة وأخرى. وتعرضت مديرية حيدان الواقعة جنوب غرب مدينة صنعاء للضرر الأكبر، كما بقيت بعض المناطق تحت سيطرة المتمردين حتى بعد الجولة الخامسة من القتال.

خلال الجولة الأولى التي استمرت من 18 حزيران/يونيو حتى 10 أيلول/سبتمبر 2004، تركز القتال بشكل رئيسي في جبال مران، على بعد نحو 30 كم جنوب غرب مدينة صنعاء حيث التجأ حسين الحوثي. وجهت الحكومة منذ البداية اتهامات لـ "الشباب المؤمن" بالولاء لحزب الله اللبناني وإيران وبالسعي لإعادة نظام الإمامة الزيدية.⁸ أنكر الحوثي هذه الاتهامات في رسالة مفتوحة بتاريخ 26 حزيران/يونيو 2004 أكد فيها ولاءه للرئيس والجمهورية وقال أن سبب الخلاف الوحيد هو موقف الحكومة الموالي للولايات المتحدة إضافة إلى السياسة السعودية في اليمن.⁹ وبعد مقتل الحوثي، أعلنت الحكومة وفقاً لأحادي الجانب للقتال.

⁵ عن الشعارات وأصولها، انظر "البلاغ" (صحيفة ذات توجه زيدي تصدر في صنعاء)، 10 آذار/مارس 2009.

⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول من حزب المؤتمر الشعبي الحاكم وعضو في مجلس الشورى (الهيئة التشريعية الثانية التي يُعين الرئيس أعضائها)، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009. في خطاب ألقاه في شهر تموز/يوليو 2004، أوضح الرئيس صالح أنه، في حين لا يعتبر الشعارات مشكلة بحد ذاتها، نظراً للانتقادات المتكررة التي يوجهها هو نفسه للسياسات الخارجية للولايات المتحدة وإسرائيل، فإنها قد أضرت بالمصالح الوطنية. "26 سبتمبر"، (صحيفة أسبوعية تصدر في صنعاء وتنشرها القوات المسلحة)، 15 تموز/يوليو 2004.

⁷ أيريس غلوسمير، "نزاع محلي، فشل دولي: تمرد في المناطق الجبلية في اليمن"، *Middle East Report* رقم 232 (أيلول/سبتمبر 2004).

⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العلمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن ووزير داخلية سابق (حتى 2008)، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009. اتهم الرئيس صالح المتمردين برفع علم حزب الله الأصفر بدلاً من علم الجمهورية اليمنية. ليزا ويدين، "رؤى خارجية: الشعب والسلطة والعمل في اليمن" (شيكاغو، 2008) ص. 153-157. وجه الإعلام الرسمي تهماً مماثلة. انظر شون أوفرتن، "فهم التمرد الحوثي الثاني في اليمن"، *Terrorism Monitor*، الجزء 3، رقم 12 (حزيران/يونيو 2005).

⁹ في حزيران/يونيو اتهم القادة الحوثيون القوات الجوية السعودية بقصف عدد من القرى بغية دعم الجيش اليمني، وهي تهمة نفتها الرياض. أندرو مكجورج، "تمرد شيعي في اليمن: تدخل إيراني أم ثورة جبلية؟"، *Terrorism Monitor*، الجزء 2، رقم 16 (أب/أغسطس 2004).

¹⁰ "الوسط" (صحيفة أسبوعية تصدر في صنعاء)، 9 آذار/مارس 2005.

¹¹ "الأهرام ويكلي" (صحيفة مصرية أسبوعية)، 19 أيار/مايو 2005.

¹² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العلمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009.

¹³ يحيى الحوثي هو أيضاً نائب في البرلمان عن حزب المؤتمر الشعبي العام الحاكم واضطلع بجهود الوساطة خلال الجولة الأولى من الحرب.

فالمظالم المتراكمة نادراً ما تلقى استجابة، والمناوشات تستمر،¹⁷ علاوة على أن قلة من الأطراف المتحاربة تبدو راغبة في إيجاد تسوية.¹⁸

وعلى الرغم من أن الحرب في جزئها الأكبر محصورة بمنطقة واحدة وبمستويات عنف قليلة نسبياً، فإن حوادث عنف كبيرة قد وقعت بالفعل، بما في ذلك عمليات قصف جوي. وتشير صور الفيديو التي ينشرها على شبكة الانترنت متمررون وجماعات حقوق الإنسان إلى حدوث تدمير واسع النطاق للمنازل والمدارس والمساجد. وقد لاحظت جماعات حقوق الإنسان بشيء من القلق وجود أزمة إنسانية رهيبية بما في ذلك أعداد كبيرة من النازحين داخلياً - حوالي 130,000 بحلول منتصف عام 2008، على الرغم من الاحتمال الكبير بأن يكون معظمهم قد عادوا لقراهم بعد وقف إطلاق النار في تموز/يوليو - إضافة إلى الاعتقالات العشوائية التي تتم خارج نطاق القضاء، وبخاصة ضد الهاشميين وسكان صنعاء.¹⁹ وبفي مسؤولو الحكومة أن تكون قواتهم تستهدف المدنيين أو تقوم بإبعادهم قسراً لأسباب عرقية أو قبلية أو دينية.²⁰ ويقول بعضهم إن المتمردين بدورهم مسؤولون عن انتهاكات حقوق الإنسان، بما في ذلك استخدام الأطفال كجنود.²¹ إن احتمال وقوع جولة قتال سادسة أكثر فتكاً هو احتمال قائم إن لم تُتخذ إجراءات تصحيحية على نحو عاجل.

¹⁷ على سبيل المثال، لقي ستة جنود مصرعهم في صدامات مع المسلحين الحوثيين في مديرية غمر (45 كم غرب مدينة صنعاء) في أول آذار/مارس 2009، "الصحوة نت"، (موقع إخباري إلكتروني تابع لحزب الإصلاح)، 8 آذار/مارس 2009. إن المعلومات بخصوص هكذا مناوشات والتي تكررت حتى في أوقات "السلام" تبقى قليلة ومشوشة نتيجة ندرة التقارير الصحفية المستقلة. ويتعذر التيقن من هوية المتورطين وصلتهم بالحكومة أو بالمتطرفين. وقد ادعى الطرفان غير مرة أن النزاعات القبلية لها علاقة بنزاع صنعاء.

¹⁸ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، كانون الثاني/يناير - آذار/مارس 2009. قال عالم دين زيدي: "الدولة تريد الحرب وكذلك الحوثيون". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 17 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁹ "مديون لامرئيين: التحدي الذي تواجهه الجهود الإنسانية في حرب اليمن المنسية"، "هيومان رايتس ووتش"، تشرين الثاني، نوفمبر 2008.

www.hrw.org/en/reports/2008/11/18/invisible-civilians

²⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، رئيس جهاز الأمن القومي ومدير مكتب رئاسة الجمهورية صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

²¹ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع عثمان المجلي، نائب في البرلمان عن حزب المؤتمر الشعبي العام من محافظة صنعاء، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009، مسؤول في منظمة إنسانية دولية غير حكومية، باريس، 28 كانون الثاني/يناير 2009. التجنيد تحت السن القانونية هو عمل تقوم به الحكومة بانتظام، ويُزعم أن الجيش استخدم أطفالاً كجنود خلال حرب صنعاء. ليس واضحاً ما إذا كان المتمررون قد قاموا بالشيء ذاته. انظر:

Child Soldiers Global Report 2008 (التقرير العالمي عن الجنود الأطفال 2008)، Coalition to Stop the Use of Child Soldiers (التحالف لوقف تجنيد الأطفال). "وإذ حاولت الحكومة الإبقاء على التعتيم الإعلامي خلال الحرب، فإن جهودها بدأت تضعف خلال الجولتين الرابعة والخامسة. فبدأت الأنباء بالتوارد عن طريق

مجموعة السالم اليهودية في محافظة صنعاء، وهو ما ينفيه الحوثيون.¹⁴

اشتدت حدة القتال ومن ثم امتد إلى مديريات متعددة، بما في ذلك خارج محافظة صنعاء، بينما سعت الحكومة لاستقدام مجندين جدد وشجعت انخراط رجال القبائل والمسلحين من مناطق أخرى في القتال.

انتهت هذه الجولة بفضل الوساطة القطرية. فإبان زيارة إلى اليمن في أيار/مايو 2007، تعهد أمير قطر حمد بن خليفة آل ثاني بتقديم بلاده دعماً مالياً لإعادة إعمار الجزء الأكبر من محافظة صنعاء إذا أوقفت الأطراف المتناحرة الحرب. وبتاريخ 16 حزيران/يونيو، توصلت الحكومة والمتمردون إلى اتفاق وقف إطلاق النار، وعلى الرغم من وقوع بعض الاشتباكات المتفرقة، فإن الطرفين قاما بتوقيع اتفاق رسمي في الدوحة يوم 2 شباط/فبراير 2008.

لم يكن مقدراً لهذا الاتفاق أن يستمر. فقد اتهمت الحكومة المسلحين الحوثيين بخرقه، بأنهم قاموا بهجومين عنيفين، على الرغم من نفي الحوثيين لذلك.¹⁵ ومن ثم امتد القتال إلى منطقة بني حشيش شمال صنعاء، مما دفع الحرس الجمهوري بقيادة أحمد علي صالح، نجل الرئيس اليمني، إلى التدخل. وقد وقع قتال عنيف في مدينة صنعاء والجزء الشمالي من محافظة عمران، وقامت ميليشيات متحالفة مع تحالف قبائل حاشد بالقتال إلى جانب الجيش الوطني، حيث يُزعم أنها تلقت تمويلاً من المملكة العربية السعودية. وبتاريخ 17 تموز/يوليو 2008، الذي يصادف الذكرى الثلاثين لتولية الحكم، أعلن الرئيس وفقاً لإطلاق النار أحادي الجانب، الأمر الذي يُعزى إلى خشية خروج الوضع عن السيطرة، أو إلى وجود وساطة محلية، أو إلى انتقادات أمريكية وأوروبية متزايدة للوضع الإنساني في محافظة صنعاء.¹⁶

ولربما يكون القتال قد توقف، بيد أنه على الأرجح توقّف أي، إذ إن جميع الأطراف الفاعلة تتوقع استئناف العنف وأن تبدأ الجولة السادسة في غضون الأسابيع أو الشهور القليلة المقبلة. لقد تصاعدت التوترات وحدثت صدامات متكررة بين الجيش والمتمردين منذ شهر آذار/مارس 2009. كما أنه ما من تفاهم واضح بين الأطراف،

¹⁴ "القدس العربي" (صحيفة عربية يومية تُنشر في لندن)، 22 كانون الثاني/يناير 2007، و"مأرب برس" (موقع إخباري إلكتروني مستقل)، 25 كانون الثاني/يناير 2007.

¹⁵ "الثوري" (صحيفة أسبوعية تصدر عن الحزب الاشتراكي اليمني)، 31 تموز/يوليو 2008. الهجوم الأول وقع في نيسان/إبريل 2008 باغتيال صالح الهندي، عضو البرلمان عن حزب المؤتمر الشعبي العام من صنعاء. موقع "الجزيرة إنترناشيونال" الإلكتروني، 19 نيسان/إبريل 2008. أما الهجوم الثاني فقد وقع في 2 أيار/مايو على مسجد بن سلمان في صنعاء، وراح ضحيته ثمانية عشر شخصاً، بما فيهم ستة ضباط عسكريين. "الوسط"، 7 أيار/مايو 2008.

¹⁶ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في المجتمع المدني، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009؛ ومع عالم دين زيدي، صنعاء، 17 كانون الثاني/يناير 2009؛ ودبلوماسي غربي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

II جذور الحرب

إن حرب صعدة عبارة عن مواجهة متعددة الأوجه تطورت بشكل لافت منذ عام 2004. وقد يكون من الممكن تقصي أسبابها في تراجع الطيف الاجتماعي الذي يمثله الهاشميون والذي شرعته الزيديون (طائفة من الشيعة)، والإدارة الفاشلة للتعددية الدينية، وغياب الاستثمار من أجل التنمية في معقل الزيديين كصعدة بعد عام 1962، وضعف المناعة ضد التأثير الخارجي، إضافة إلى بروز لاعبين سياسيين ودينيين كالسلفيين على نحو خاص. نتيجة لذلك، فإن الحرب اتخذت، على نحو متباين وفي آن معاً، شكل صراعات طائفية وسياسية وقبلية متجذرة في المظالم التاريخية وضعف التنمية المستقل. كذلك ساهمت الحرب الباردة بين السعودية وإيران في نشوبها.

من منظور بعيد، تبدو الحرب وكأنها صراع داخلي مسلح بين جيش وطني وجماعة متمردة، بيد أن الحدود الفاصلة في هذه المعركة هي أكثر هلامية من ذلك بكثير. إذ تفيد التقارير أن الجيش تمتع بدعم الميليشيات القبلية أو الإسلامية، وعلى نحو خاص خلال الجولتين الرابعة والخامسة. علاوة على ذلك، يوحى البعض بأن الحرب تعكس صراعاً على السلطة ضمن النخبة الحاكمة إذ تتنافس عناصر مختلفة على خلافة صالح، مستخدمة أحد الطرفين لتعزيز موقعها.²²

على ذلك، فإن معرفة أهداف المجموعة التي يقودها الحوثيون ليست بالمهمة السهلة، إذ أن حسين الحوثي، عند بداية الحرب، طالما أعرب عن ولائه للدولة وأنكر تمرده عليها.²³ غير أنه

زيارات قامت بها منظمات حقوق إنسان محلية ودولية، إضافة إلى وسائل اتصال المتمردين التي باتت أكثر فعالية (عن طريق موقع إلكتروني في القاهرة، "المنبر الإخباري اليمني"، والذي كثيراً ما يتعذر النفاذ إليه في اليمن نتيجة الرقابة التي يستطيع المسلحون اختراقها أحياناً، إضافة إلى الاتصال المباشر مع صحفيين مستقلين في صنعاء). على سبيل المثال، نشرت "هيومن رايتس ووتش" تقريرين في أواخر عام 2008، "حالات اختفاء واعتقالات عشوائية في الصراع المسلح مع المتمردين الحوثيين في اليمن" و"مدنيون لا مرئيون: التحدي الذي تواجهه الجهود الإنسانية في حرب اليمن المنسية". بيد أن الدرجة الحقيقية للعنف وأثره يبقان غير واضحين. فإجمالي الضحايا (مدنيين ومتمردين وعسكريين) عرضة لتكهنات الصحفيين المحليين والمجتمع المدني. وقد ردت الحكومة على اتهامها بانتهاك حقوق الإنسان بالإعراب عن استعدادها للتعاون مع منظمات محلية وأجنبية، وإطلاق سراح السجناء وادعاء حدوث تقدم في الاستجابة للقضية – ولكن من دون أن تؤمن فرصة للوصول إلى مناطق القتال.

²² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي مستقل، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009. لا يزال الرئيس صالح في السلطة منذ عام 1978. ²³ انظر فرانسوا بورغا، "اليمن بعد 11 سبتمبر 2001: ما بين بناء الدولة وتضييق المجال السياسي"، *Critique Internationale*، رقم 32 (2006). يقول حسين الحوثي في إحدى مقابلاته، "أنا لا أعمل ضدك [أي ضد الرئيس]؛ إنني أقدرك وما تقوم به بالغ التقدير، غير أن ما أقوم به هو واجبي الوطني المقدس ضد عدو الإسلام والمجتمع ... أمريكا وإسرائيل. إنني إلى جانبك، فلا تلق بالأل للمنافقين والمحرضين، وكن على ثقة أنني أكثر وفاء وإخلاصاً لك منهم". "يمن تايمز" (صحيفة تصدر مرتين أسبوعياً في صنعاء)، 28 حزيران/يونيو 2004.

بمرور الوقت تحول موقف قيادة الحوثي إلى معارضة لا لبس فيها.²⁴ وبعد إعلان وقف إطلاق النار عام 2008، سعت الحركة صراحة لـ "إسقاط نظام علي عبد الله صالح".²⁵ والأهم من ذلك أنه ما من دليل على امتلاك ما يسمون بالمتطرفين لأي بنية قيادة وتحكم، أو أي مذهب فكري متماسك أو برنامج سياسي. فبعض الجماعات التي تقاوم الحكومة، على الرغم من الإشارة إليها باسم الحوثيين، تبدو مدفوعة بعوامل عديدة أغلبها غير أيديولوجية، كما أنها تُشاطر القيادة قدرًا ضئيلاً من المظالم التي تدعيها. إن القتال الذي وقع في أيار/مايو 2008 في بني حشيش، على بعد عشرين كيلومتراً فقط شمال صنعاء، لهو مثال واضح على ما دُكر، إذ صوّره كل من الحكومة والقيادة الحوثية على أنه هجوم للمتمردين، في حين يبدو القول جائزاً بأن الأحداث كانت أقرب إلى صراع على ملكية أرض محلية بين رجال القبائل وشخصية عسكرية بارزة.²⁶

وبحسب أحد المراقبين المستقلين، يُمكن تقسيم المتمردين إلى أربع مجموعات: أقلية تعتنق مذهباً فكرياً واضحاً وتقيم صلات سياسية مع إيران وتحتشد حول الشعارات المعادية للغرب؛ وطائفة صغيرة ولكن بارزة تسعى للذود عن الهوية الزيدية والهاشمية؛ ومجموعات من المسلحين ذوي دوافع مالية محضة؛ وأغلبية من رجال القبائل يدافعون عن عائلاتهم وفراهم ضد العنف الذي تشنه الدولة.²⁷

أ. من هم الحوثيون؟

على غرار الأغلبية الساحقة من سكان المناطق الجبلية في شمال البلاد، بمن فيهم الرئيس ذاته، ينتمي الحوثيون إلى الطائفة الزيدية، بيد أنهم يتميزون بكونهم إحيائيين يؤمنون أن الهوية الزيدية في خطر إذ تهددها الهوية السنية، أو حتى الوهابية، السائدة.²⁸ نادى بدر الدين الحوثي، وهو والد حسين الحوثي

²⁴ بعد مقتل حسين، رفض والده التصريح بما إذا كانت قيادة الرئيس صالح شرعية. "الوسط"، 9 آذار/مارس 2005؛ وسارة فيليبسن "تصدعات في النظام اليمني"، *Middle East Report Online* (2005).

²⁵ مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع يحيى الحوثي، نائب في البرلمان في المنفى وقائد مشارك في التمرد، برلين، 3 شباط/فبراير 2009.

²⁶ "الشارع" (صحيفة أسبوعية مستقلة تصدر في صنعاء)، 7 حزيران/يونيو 2008.

²⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع سامي غالب، رئيس تحرير صحيفة "النداء" الأسبوعية المستقلة، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009.

²⁸ ظهرت الوهابية – وهو مصطلح جدلي بحد ذاته – في منتصف القرن الثامن عشر فيما بات اليوم يعرف بالمملكة العربية السعودية. وهي قائمة على تفسير صارم لأفكار المدرسة الحنبلية في الفقه والتي تُشدد على وحدة الإله (التوحيد) وترفض مطالب الهاشميين بالسلطة لنفسهم. السلفية هي حركة سنية تسعى لإحياء الإسلام "الأصيل"، مستمدة تعاليمها مما يُسمى بالسلف الصالح؛ ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين وتتميز دينياً برغبتها في تخطي مدارس الفقه الإسلامي التقليدية الأربعة (الشافعية والحنفية والحنبلية والمالكية) وسياسياً بارتباطها في السياسات الحزبية ووصفها للإسلام الشيعي. وفي

إذ سعت الحكومة إلى مكافحة انتشار الجماعات السلفية المرتبطة بالمملكة العربية السعودية في صعدة.³¹

ب. توازن مختل

تعدُّ قدرة اليمن على استقطاب طيف عريض من اللاعبين المختلفين، والمتنافسين أحياناً، واحدة من أهم خصائص النظام السياسي لذلك البلد في حقبة ما بعد الوحدة.³² كما تُعدُّ هذه السمة إرثاً للحرب الأهلية في الستينيات وما تبعها من إدراك بأن بقاء الجمهورية يعتمد على تقاسم السلطة والتسوية. وهكذا فقد لجأت الحكومات المتعاقبة إلى تعيين المقربين منها كضامن أساسي لاستقرار النظام. وفي حين لم تكن الانشقاقات أو القمع غائبة تماماً، فإن اليمن بالمُجمل نجح في تفادي إراقة الدماء على نطاق واسع أو الحرب المفتوحة. وفي حين أن المناوشات بين الجيش الوطني والجماعات القبلية كثيراً ما كانت عنيفة وطويلة الأمد، فإن هذه النزاعات عادة ما يتم حلها عن طريق توزيع المناصب، خاصة في الجيش، حيث تحول الكثيرون من شيوخ القبائل المتمردين إلى ضباط.

لطالما كانت المحافظات النائية كمأرب والجوف وشبوة وصعدة أماكن تزخر بالمظالم والانشقاقات، حيث تستمر القبائل بلعب دور رئيسي وتُغيب الدولة فعلياً لعجزها عن توفير الأمن والبنى التحتية والخدمات العامة. تقوم القبائل المحلية على نحو منظم بعمليات خطف للمواطنين والأجانب بغية الضغط على الحكومة للإفراج عن أفراد محتجزين لديها أو لإنشاء الطرق والمستشفيات. كما أن الحماية التي تضمنها القبائل العاصية لأفراد متهمين بجرائم أو ذوي صلات بالجماعات الإرهابية كثيراً ما تؤدي لعمليات عسكرية تقوم بها الشرطة أو الجيش، كما هو الحال في النزاعات المرتبطة بالأرض أو الثأر.³³ ومع ذلك، فإن كل ما سبق يبدو

وعالم دين شهير من صعدة، بإحياء الزيدية منذ سبعينيات القرن الماضي، ونشر عدة أبحاث منمودة بالوهابية، وقد هذا أفراد آخرون من العائلة حذوه بافتتاح معاهد للتعليم الديني وتأليف كتب والعمل على نشر الدعوة.

إن أفراد الأسرة الحوثية هم هاشميون أيضاً، مما يعني أنهم لا يستمدون شرعيتهم من التحالف مع أي قبيلة معينة. ويُقال إن الهاشميين وصلوا اليمن بعيد وصول الإسلام بقليل، قائمين بالوساطة بين القبائل المحلية؛ ونتيجة كونهم وصلوا متأخرين بعض الشيء فإن ادعاءهم الهوية اليمنية الأصلية يُقابل بالتشكيك أحياناً، على الرغم من أن الزيديين الهاشميين حكموا أجزاء من اليمن أو حكموا اليمن برمته ما يربو على الألف عام حتى سقوط نظام الإمامة في اليمن الشمالي في أيلول/سبتمبر 1962.²⁹ ومن ثم تداول مقاليد الحكم أفراد وجماعات من أصول قبلية، أكثرهم يتحدرون من المناطق الزيدية. تأقلم معظم الهاشميين مع النظام الجديد، فدعموه على الفور وقبلوا بانحدارهم السياسي، في حين اختارت أقلية منهم المنفى، خاصة في المملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة.

مع توحيد اليمنين الشمالي والجنوبي عام 1990 وما تلاه من نشوء نظام سياسي متعدد الأحزاب، اكتشف الزيديون الإحيائيون وسيلة أخرى للتعبير السياسي. إن تأسيس حزب الحق و"الشباب المؤمن"، وهي حركة منبثقة عن الحزب الأول تأسست في منتصف التسعينيات، عكس دينامية زيدية جديدة. وخلال أول انتخابات تعددية في اليمن عام 1993، انتخب حسين الحوثي وعبد الله الرزامي، وهو رجل قبيلة من محافظة صعدة كذلك، إلى البرلمان كعضوين عن حزب الحق وشغلا منصبيهما مدة أربع سنوات عن كل دورة برلمانية. منذ عام 1997 فصاعداً، ركز حسين الحوثي نشاطه على "الشباب المؤمن" في صعدة، وقد تمتع في تلك الفترة برضا الحكومة، بل ودعمها،³⁰ كما يجادل البعض،

تاريخ وثقافة اليمن: "تنبهت الحكومة إلى خطورة انتشار الوهابية، فقامت في الثمانينيات والتسعينيات بدعم المجموعات الزيدية، بما فيها الحوثيون. بيد أنها فشلت في السيطرة على برامج هذه الجماعات". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب المؤتمر الشعبي العام وعضو في مجلس الشورى، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009. ولئن صح ذلك القول فسيكون منسجماً مع خطة الحكومة وسجلها في اجتذاب الجماعات الدينية والقبلية. ردت القيادة الحوثية بقولها: "هذه افتراءات واتهامات يطلقها الوهابيون. لم ننتلق قط أية أسلحة أو أموال من الحكومة". مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع يحيى الحوثي، برلين، 3 شباط/فبراير 2009.

³¹ للاطلاع على بحث في صلات سلفيي اليمن بالمملكة العربية السعودية، انظر لوران بونفوا "السلفية في اليمن: سَعُودَة؟"، في الكتاب الذي حرره مضايوي الرشيد، "مملكة بلا حدود: التوسع السعودي في العالم" (لندن، 2008)، ص. 245-262.

³² خلال الحقبة الاشتراكية في اليمن الجنوبي (1970 - 1990)، تمايزت العلاقات بين الدولة والمجتمع على نحو ملحوظ عن نظيرتها في اليمن الشمالي، حيث كانت الأولى مدفوعة بدافع أيديولوجي وسعت لتغيير المجتمع وكسر المؤثرات التقليدية، قبلية كانت أم دينية.

³³ انظر تقرير مجموعة الأزمات رقم 8 حول الشرق الأوسط، "اليمن، التأقلم مع الإرهاب والعنف في دولة هشّة"، 8 كانون الثاني/يناير 2003، ص. 19-20؛ "نيويورك تايمز"، 20 كانون الأول/ديسمبر 2001؛ و"يمن تايمز"، 24 كانون الأول/ديسمبر 2001.

حين أنها ليست عنيفة بذاتها، فإن زُمرًا معينة من الحركة السلفية الأوسع، وهم الملقبون بالجهاديين، قد ألهمت مجموعات من قبيل تنظيم القاعدة. انظر تقرير مجموعة الأزمات للشرق الأوسط وشمال أفريقيا رقم 37، "فهم التيار الإسلامي"، 2 آذار/مارس 2005، ص. 13-14؛ لوران بونفوا، "تفكيك السلفية في اليمن"، *CTC Sentinel*، الجزء 2، رقم 2، شباط/فبراير 2009: تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 31، "المملكة العربية السعودية: من هم الإسلاميون؟"، 21 أيلول/سبتمبر 2004، ص. 1.

²⁹ في 1926، أسس الإمام يحيى (الحاكم الديني والسياسي منذ عام 1904) المملكة المتوكلية في اليمن ونصّب نفسه ملكاً عليها. لاحقاً، وعلى الأخص خلال الحرب الأهلية التي أعقبت الثورة الجمهورية عام 1962، بات مناصرو الإمام يُعرفون بالملكيين.

³⁰ تشير التقارير إلى أن الجماعات الزيدية الإحيائية، بما فيها جماعة الحوثي، "الشباب المؤمن"، تلقت تمويلًا من الدولة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شخصية إسلامية معارضة، صنعاء، 10 كانون الثاني/يناير 2009؛ انظر أيضاً عبد الله الصنعاني، "الحرب في صعدة من أول صبيحة إلى آخر طلقة" (القاهرة، 2005)، ص. 34-35. على حد قول مسؤول رفيع في الحزب الحاكم، كان التمويل يستهدف وضع حد لتأثير جماعات إسلامية أخرى في منطقة صعدة، بالأخص السلفيين/الوهابيين، الذين أقاموا صلات مع المملكة العربية السعودية ودعوا إلى إصلاح الإسلام على نحو صارم شعر الكثيرون بغرْبته عن

جزءاً أساسياً ومقبولاً في المعادلة السياسية اليمنية أكثر من كونه تهديداً لها.

تخلى معظم الزيديين عن الزي الشيعي، كما يُحجم الشافعيون عن مهاجمة الزيديين، ويؤدي الكثيرون منهم الصلاة في مساجد الطائفة الأخرى.³⁷ يُلخص علي الأنسي - رئيس جهاز الأمن القومي الذي أنشئ في إطار حملة مكافحة الإرهاب التي تلت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر - ذلك قائلاً: "الزيدية طائفة شيعية ضمن الإسلام السني، والشافعية طائفة سنية ضمن الإسلام الشيعي".³⁸

وعلى الرغم من الانتشار المتزايد لهذه الهوية التوافقية، فإنها لا تشمل الجميع. إذ إن السلفيين، الذين برزوا في أوائل الثمانينيات ويرتبطون بالمملكة العربية السعودية، يستمرون في مهاجمة الزيديين مسلطين الضوء على صلاتهم المزعومة بالجغرافية (الطائفة الشيعية السائدة في إيران والعراق)³⁹؛ وبالمقابل، فإن الزيديين الساعين لإحياء هويتهم، بمن فيهم الحوثيون، يتشبثون بالخصائص الرمزية والدينية للزيدية ويرفضون بحزم ما يعتبرونه سيطرة وهابية أو سلفية.⁴⁰

ليست الأزمة في الزيدية دينية محضة، بل إن لها بعداً اجتماعياً- سياسياً. فحتى قيام الجمهورية عام 1962، ساد نظام الطبقات في المجتمع الزيدي في المناطق الجبلية شمال البلاد، وهو قائم على تقسيم بين الزيديين الهاشميين، القضاة الإداريين، ورجال القبائل، وأهل الثالث كالجزارين والحلاقين الذين يقومون بأعمال تعتبر قدراً كونها تتطلب تلامساً مع مواد عضوية.

شجبت الجمهورية هذا التصنيف ووعدت بالمساواة بين الجميع. وإذ ترقوا في صفوف الجيش، تحالف رجال القبائل والقضاة الزيديون مع النخبة والمثقفين الشافعيين ليشكلوا الزمرة الحاكمة الجديدة. استمرت المقاومة التي بدأها الملكيون المدعومون سعودياً، المساندون للإمامة في معاقلم قرب مأرب وحجة وصعدة، مدة سبع سنوات حتى انتصرت الدولة. إن طبيعة الدعم السعودي سياسية أكثر منها دينية (إذ يقف الزيديون على طرفي نقيض من السلفية/الوهايية)؛ فقد كانت السعودية تحبذ بقاء مملكة زيدية بدلاً من جمهورية اليمن الشمالي المدعومة مصرياً.

لقد خلف هذا التاريخ جروحاً. إذ يعتبر الزيديون الإحيائيون والحكام السابقون أن الجمهورية معادية للهاشميين والزيديين معاً،

بقيت الخسائر بين المدنيين منخفضة حتى خلال حرب عام 1994 بين الجيش الشمالي والانفصاليين الجنوبيين، كما اندمج العديد من هؤلاء القادة الانفصاليين ضمن جهاز الدولة لاحقاً، بل وأصبح البعض منهم مستشارين رئاسيين مقربين. وعلى نحو مماثل، في إطار محاربة الجماعات المرتبطة بالقاعدة، فضلت الحكومة الحوار على القمع وقامت باجتذاب العديد من المقاتلين، عارضة عليهم الأموال والوظائف مقابل تعهدهم بنبذ العنف ضد الدولة.³⁴

ج. أزمة داخل الزيدية

إن ثورة عام 1962 التي جاءت بالجمهوريين للسلطة أنتجت إعادة هيكلة سياسية واجتماعية عميقة وغيرت نظاماً لطالما ارتبط به الزيديون.

يُعدُّ المجتمع اليمني تعديداً على الرغم من حقيقة أن السواد الأعظم من سكانه هم عرب مسلمون. تشكل الشيعية الزيدية والسنية الشافعية الطائفتين الدينتين الرئيسيتين في البلاد، وعلى الرغم من اختلافهما حول العديد من القضايا الدينية والسياسية،³⁵ فإن الطائفتين تُعتبران قريبتين نسبياً ضمن الطيف العقائدي السني الشيعي الأوسع. وقد ضاقت الفجوة بين الزيديين والشافعيين بدرجة أكبر على مدى العقود القليلة الماضية، ويعود ذلك في جزء منه إلى جهود الدولة بخاصة في مجال التعليم، إذ كثيراً ما نوهت الحكومة بالشخصيات الزيدية التاريخية البارزة التي أيدت "التسُّن".³⁶ واليوم تُعرف قلة من الزيديين أنفسهم على أنهم شيعية؛ قد يوصف بعض الأشخاص بالزيديين نتيجة أصولهم الجغرافية والطائفية (بما في ذلك الرئيس صالح ومعظم أعضاء النخبة الحاكمة، سواء في حزب المؤتمر الشعبي العام أو حزب الإصلاح، الفرع اليمني لجماعة الإخوان المسلمين)، غير أن هذا يُعد جانباً ثانوياً في هويتهم. لقد اندمج هؤلاء ضمن مجال إسلامي لا طائفي أوسع حين تقاربت الهويات تدريجياً.

³⁴ تعرض هذا التوازن للكثير من الضغوط وانتقده حلفاء اليمن في أعقاب هجمات 11 سبتمبر/أيلول 2001. تفيد التقارير أن الرئيس الأمريكي جورج دبليو. بوش وجه رسالة في شباط/فبراير 2006 للرئيس صالح أعرب فيها عن خيبة أمله لضعف مشاركة الحكومة في "الحرب العالمية على الإرهاب" ومشككاً في إخلاصها. أندرو مكريغور، "أزمة في اليمن: قضية الزندان"، *Terrorism Focus*، الجزء 3، رقم 9 (أذار/مارس 2006).

³⁵ على سبيل المثال، تختلف التؤوليات بشأن أهمية الحديث (مجموعة مدونة من أقوال وأفعال النبي). يجادل أكثر الزيديين بضرورة إهمال الأحاديث التي تبدو متناقضة مع القرآن وغير مدعومة بالأيات الصريحة، على الرغم من أن الفقه السني يعتبرها صحيحة. علاوة على ذلك، تولى الزيدية اهتماماً بالغاً لدور الهاشميين السياسي والاجتماعي والديني، إضافة إلى دور الإمام كقائد للدولة، وهي تؤوليات يعارضها أكثر الشافعيين.

³⁶ يُعدُّ محمد الشوكاني مثلاً بارزاً على ذلك. انظر برنارد هيكل، "النهضة والإصلاح في الإسلام: إرث محمد الشوكاني" (كيمبريدج، 2003).

³⁷ لوران بونفوا، "الهويات المعاصرة في اليمن: التلاقي والمقاومة والتطبيق"، *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*، رقم 121-122 (2008).

³⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

³⁹ تتميز الزيدية عن الجعفرية في الفقه والتنظيم المؤسسي. على سبيل المثال، ليس هناك تراتبية دينية عند الزيديين، كما أن الطائفة لا تُسبغ أهمية سياسية ورمزية على الأئمة علي والحسين والحسن كما يفعل الجعفريون. يعترف الزيديون بالأئمة الخمس الأوائل فحسب، في حين يعترف الجعفريون باثني عشر منهم (من هنا جاءت تسمية الشيعية الاثني عشرية) وينتظرون ظهور الإمام الثاني عشر "الغائب".

⁴⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عالم دين زيدي، 11 كانون الثاني/يناير 2009.

الزيديون بروز جيل جديد من العلماء والمسلحين غير موصوم بآرث الحرب الأهلية. قام هؤلاء العلماء بتأسيس معاهد تعليمية زيدية في صنعاء وصعدة بالدرجة الأولى، كما أصدر الناشرون طبقات جديدة من الأبحاث الزيدية.

إن تأسيس حزب الحق وإعادة تفعيل اتحاد القوى الشعبية أعطت الإحيائيين وسيلة للتعبير السياسي. في أعوام التسعينيات، وقع علماء دين زيديون مرتبطون بحزب الحق على بيان رسمي قائل بعدم وجوب أن يكون الحاكم أو الإمام هاشمياً؛ عارض الشيخ بدر الدين الحوثي وعلماء دين آخرون من صعدة هذا القول وانشقوا عن الحزب، ومن ثم قام حسين الحوثي وآخرون⁴⁶ بتأسيس "الشباب المؤمن"، ساعين لإحياء النشاط الزيدي عن طريق التثقيف والدعوة.

جاءت محاولات الإحياء الزيدي في محيط صعدة أيضاً كردة فعل على انتشار السلفية التي تزعمها مقبل الوادعي، وهو عالم دين من صعدة تلقى تعليمه في السعودية. في أواخر التسعينيات، وبعد طرده من السعودية كرد فعل على نشاطاته السياسية، قام الوادعي بتأسيس معهد الخاص، دار الحديث، في ناحية دماج على مشارف صعدة. تطور المعهد بسرعة كبيرة، مُتَقَفًا الآلاف من الشباب اليمني والأجنبي ومن ثم افتتحت معاهد مماثلة له في جميع أنحاء البلاد. تلا ذلك تنافس شرس مع الزيديين أدى إلى ما سماه باحث غربي "صراع الأصوليات".⁴⁷ في مطلع التسعينيات، لجأ علماء الدين الزيديون لتوزيع كتيبات تُدِين "التطفل" السلفي على عقر دار الزيديين الإحيائيين وتتحو باللائمة على السعودية لمحاولاتها الحثيثة تصدير الوهابية.⁴⁸ مُعَلِّلاً قيام الحوثيين بتأسيس "الشباب المؤمن"، يقول يحيى الحوثي:

إن دافعنا الرئيسي للعمل هو مكافحة الوهابية. هناك حرب ثقافية وفكرية بين الزيدية والوهابية منذ قيام الثورة في الستينيات. إن الحكومة اليمنية تشد مساعدات اقتصادية من السعودية وهي تساند انتشار الوهابية في سبيل ذلك.⁴⁹

إن التمييز المعادي لكل من الزيديين والهاشميين، وبخاصة في أوساط بعض المفكرين الإسلاميين السنيين (سلفيون وإخوان مسلمون)، لهو أمر يبعث على بالغ القلق؛ إذ إنه يهدد التقارب المتنامي بين الهويات الطائفية⁵⁰ ويقوض جهود المصالحة التي

وعلى الرغم من أن أغلب رجالها هم من أصل زيدي، فإن الاتهام يوجّه إليهم بتجاهل جذورهم، وعلى نحو متناقض، بالخضوع لتأثير سلفي/وهابي مدعوم سعودياً ما برح يتنامى منذ أعوام السبعينيات. وهكذا يمكن النظر إلى حرب صعدة بوصفها امتداداً لعملية بدأت مع ثورة 1962⁴¹ وشهدت تراجع فئة اجتماعية ينتمي إليها الحوثيون.⁴²

اشتكى الزيديون أيضاً من إهمال الحكومة لمناطقهم النائية، إذ على حد قول أحد المراقبين: "يعرف الناس الحكومة فقط من خلال قذائفها ودباباتها".⁴³ بقيت صعدة مهمشة ومُتجاهلة من قبل الحكومة إلى حد كبير وتطورت فحسب نتيجة التجارة مع المملكة العربية السعودية من جهة وخصوبة أراضيها من جهة أخرى. في مطلع التسعينيات، ذكر مثقف زيدي أن المستشفى الوحيد في صعدة حينها بُني بأموال سعودية، وأن المدينة انتظرت ما ينوف على العشرين عاماً بعد الثورة حتى زارها رئيس من اليمن الشمالي.⁴⁴ وهكذا فقد تحول عدد من الزيديين الجدد – أبرزهم الحوثيون – إلى معارضين رئيسيين للنظام بعد أن شعروا بالغربة عن الدولة التي جردتهم من منزلتهم السابقة ولم تُعر تطورهم الأمني والاقتصادي أي اهتمام.

لقد قويت شوكة الزيديين الإحيائيين في معارضتهم للنظام نتيجة عدة عوامل أخرى. إذ ترك سقوط الإمامة تلك الفئة في أزمة عميقة حين واجه علماءها المهمة الشاقة المتمثلة في إحياء شرعيتهم في غياب إمام يمثلهم.⁴⁵ ومن ثم سهلت الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 من عملية التكتيف العقائدي كونها زودت شيعية العالم الإسلامي بمثال إيجابي؛ وفي الآن ذاته، شهد اليمنيون

⁴¹ يقول عالم دين زيدي (وإن كان غير هاشمي) اعتُقل أثناء حرب صعدة في وصف لجذور الصراع: "إن الأشخاص الذين يحكمون اليمن اليوم لا تزال لديهم مشكلة مع الحكام الهاشميين السابقين. هناك نمط من العنصرية يُمارَس اليوم. يبدو وكأنهم يؤمنون أن الـ 1200 عام السابقة كانت برمتها خاطئة وسلبية. يبدو الآن من المستحيل على هاشمي أن يتولى منصب الرئيس أو حتى رئيس الوزراء. بل حتى لو أراد أن يصبح وزيراً ثانوياً، سيتعين عليه أن يبرهن على ولائه للرئيس والحزب الحاكم مراراً وتكراراً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير. نفى الرئيس صالح أي تحيز ضد الهاشميين أو الزيديين. في خطابه الذي وجهه إلى علماء دين من خلفيات متعددة في أيار/مايو 2007، قال الرئيس إن الدولة محايدة وتحترم جميع الطوائف. "الثورة" (صحيفة رسمية يومية تصدر في صنعاء)، 15 أيار/مايو 2007.

⁴² انظر غابرييل فوم بروك، "الإسلام، الذاكرة والفناء في اليمن: أسر حاكمة في طور التحول" (نيويورك، 2005). لا يعني هذا أن الحوثيين يمثلون الزيديين أو الهاشميين، أو أن هؤلاء الأخيرين يدعمون أو يتعاطفون بالإجماع مع المتمردين. انظر سامي دورليان، "الصياغات الجديدة للزيدية في الهوية الاجتماعية والسياسية المعاصرة"، "Chroniques Yéménites"، رقم 15 (2008).

⁴³ "النداء"، (صحيفة أسبوعية مستقلة تصدر في صنعاء)، 30 آذار/مارس 2005.

⁴⁴ محمد الصعدي، "صعدة لماذا؟" (بيروت، طبعة محدثة).

⁴⁵ غابرييل فوم بروك، "كينونة الزيدي في غياب الإمام"، تحرير ريمي ليفو، فرانك ميرميه وأودو شتاينبك، "اليمن المعاصر" (باريس، 1999).

⁴⁶ يضم هؤلاء عبد الكريم جديان، محمد عزان وصالح هيرة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع حسن زيد، أمين عام حزب الحق، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

⁴⁷ شيلاغ فير، "صراع الأصوليات"، Middle East Report، رقم 204 (1997).

⁴⁸ أمين أبو زيد، "الوهابية وخطرها على مستقبل اليمن السياسي" (بيروت، 1991).

⁴⁹ مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع يحيى الحوثي، برلين، 3 شباط/فبراير 2009.

⁵⁰ نشرت المجلة الشهرية السلفية "المنتدى" عدة مقالات تستهدف الزيدية. وعنوانت إحداهما، مركزة على "التمرد الحوثي الثاني" كالتالي: "حتى لا ننسى: الخطط السرية لنشر الثورة الإيرانية". وفي العدد نفسه، كتب عبد العزيز الدبعي: "إن كان للقوات المسلحة دور كبير

III. روايات متضاربة

تسرد كل من الحكومة والمتمردين روايات مختلفة تماماً بشأن الحرب، فيسلط الطرف الأول الضوء على الأبعاد العقائدية للتمرد والصلوات المزعومة بإيران، في حين يشدد الآخر على ما يدعوه تحيز الدولة ضد الزيديين وخطر الوهابية المدعومة سعودياً وأخطار التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط.⁵³ وبخلاف ذلك، فإن الروايات المختلفة قليلاً والتي يمكن أن تحسّن فهم كيفية اندلاع الصراع واستمراره لم تحظ بالاهتمام الكافي.

أ. رواية الدولة

سعت الحكومة منذ بداية الصراع إلى نزع مصداقية المتمردين وحشد الدعم الغربي، فصورت "الشباب المؤمن" كجماعة دينية أصولية واتهمتهم بإثارة الحرب لتقويض الدولة وإعادة نظام الإمامة الزيدية،⁵⁴ كما صورت الصراع في صعدة كجزء من الحرب العالمية التي شنتها إدارة بوش على الإرهاب، إضافة إلى اتهامها المتمردين بالولاء لإيران.

يصور أحد مسؤولي الحكومة تحول المتمردين من مدافعين عن الهوية الزيدية إلى متمردين معادين للدولة على النحو التالي:

دخل "الشباب المؤمن" المعركة بصفتهم جماعة معادية للسلفية. ومن ثم وسعوا مشاركتهم السياسية تدريجياً واستفادوا من الوضع الدولي لحشد الدعم لأنفسهم. تدخلت الحكومة لوقف عدد من التظاهرات كوئها غير قانونية، ومن ثم تفاقم الصراع حين دعا الشباب المؤمن أهل صعدة للتوقف عن دفع الواجبات وبدؤوا يتدخلون في شؤون الحكومة.⁵⁵

وفقاً لهذا المنظور، فإن الحوثيين هم من بدؤوا الصراع. وعلى حد قول وزير سابق وعضو في مجلس الشورى والحزب الحاكم: "شعر الحوثيون في وقت ما أن لديهم القوة الكافية للخروج⁵⁶ على

⁵³ على الرغم من وجود تناقضات في كلتا الروايتين، فإنها لا تعكس برامج سياسية متضاربة من قبيل تلك التي بين "الصقور" و"الحمام"، بل تبدو ناتجة عن ندرة المعلومات وضبابيتها إضافة إلى تعدد الروايات. وبالنسبة للحكومة، يمكن تعليل غياب المعطيات الدقيقة بحقيقة أن الحرب تمت إدارتها لوقت طويل من قبل الجيش وحده في حين استثنى كبار المسؤولين من عملية صنع القرار. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نبيل الصوفي، صحفي ورئيس تحرير مجلة "أبواب" الشهرية المستقلة، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009.

⁵⁴ انظر "يمن تايمز"، 28 حزيران/يونيو 2004.

⁵⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول حكومي رفيع، صنعاء، 7 كانون الثاني/يناير 2009.

⁵⁶ ليس استعمال مصطلح خروج بريئاً. إذ تُشرع الزيدية صراحة التمرد على الحكام المستبدين (الخروج على الحاكم الظالم). وخلال حكم الإمامة الذي امتد قرابة القرن، كان التمرد وسيلة مشروعة يستخدمها الهاشميون لكسب السلطة. وإذ تستحضر الحكومة هذا المفهوم تسعى للتشديد على هدف المتمردين المزعوم في إعادة حكم الأئمة.

أعقبت الحرب الأهلية. إن حادث السيارة الذي وقع في كانون الثاني/يناير 2003 – والذي يشتهه البعض بكونه مُدبراً – وأدى بحياة يحيى المتوكل، وزير الداخلية السابق والسياسي البارز، قد ترك الهاشميين بدون ممثل بين النخبة الحاكمة. علاوة على ذلك، فإن التهجم على الهاشميين والزيديين قد ازداد سوءاً مع تصاعد الحرب، وخلال الجولة الخامسة منها، اعتُقل أفراد من الأسرة الهاشمية بصفة عشوائية.⁵¹ تقول زوجة شاب هاشمي اعتُقل في صنعاء في 2008 ولا زال حتى نيسان/إبريل 2009 قيد الاحتجاز بدون محاكمة: "الأشخاص غير الهاشميين هم وحدهم يملكون الحق بانتقاد الحرب في صعدة. إن كنت هاشمياً وزيدياً ومعارضاً للحرب، فإنك ستواجه الاعتقال مباشرة".⁵²

تلعبه في استئصال الفتنة الحوثية، فإن على القوى الفكرية استئصال جذورها". "المنتدى"، نيسان/إبريل 2005. في 2008 نشر مركز الكلمة الطيبة السلفي كتاباً عنونه: "الزيدية في اليمن: حوار مفتوح"، مركزاً على الأخطاء الدينية الزيدية وتقاربها مع الشيعة الاثني عشريين. انظر محمد بن محمد المهدي، "الزيدية في اليمن: حوار مفتوح"، صنعاء، 2008. في 2007، قام مفكرون إسلاميون، من بينهم عبد الفتاح البتول، مستشار محافظ إب، بتأسيس مركز نشوان بن سعيد الحميري الذي سلط الضوء على "خيانة" الإمامة الزيدية. أحمد محمد الحضيبي، "تاريخ الإمامة الهاديية في اليمن: الفكر والتطبيق" (صنعاء، 2007). نشوان بن سعيد هو شاعر يماني من القرن الثاني عشر معروف بمواقفه المعادية للهاشميين. سامي دورليان، "الصياغات الجديدة للهوية"، مقتبس، ص. 167-168.

⁵¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط حقوق إنسان، 5 كانون الثاني/يناير 2009.

⁵² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زوجة شخص محتجز، صنعاء، 20 كانون الثاني/يناير 2009.

كذلك تعرض الحوثيون للانتقاد بسبب محاولتهم فرض قوانين اجتماعية جديدة وأكثر تشدداً في المناطق التي تقع تحت سيطرتهم، كما هو الحال في صعدة".⁶³

في سبيل دعم قضيتها الدولية، لجأت الحكومة إلى وصف المتمردين بالإرهابيين، متهمه إياهم بالتحضير لهجمات ضد المصالح الغربية، والتخطيط لخطف دبلوماسيين أجانب، ورش مادة الأسيد على النساء غير المحجبات، وتسميم احتياطات المياه، واغتيال المسؤولين، والقيام بتفجيرات في أماكن عامة؛ وقد تعرض الكثير من الأشخاص، بمن فيهم صحفي ومحرر، للمحاكمة بناء على اتهامات من هذا القبيل. وأرسل بعضهم إلى المحكمة الجنائية الخاصة التي أنشئت للتعامل مع الإرهابيين في أعقاب هجمات 11 سبتمبر/أيلول.⁶⁴ تشير التقارير إلى زعم الحكومة طلبها من الأمم المتحدة وضع جماعة الشباب المؤمن على لائحتها للمنظمات الإرهابية،⁶⁵ ولكن يبدو أنها لم تنقل تلك المطالبة بشكل رسمي. وبصرف النظر عن الاتهامات، فإنه ما من أدلة تربط بين الحوثيين وجماعات إرهابية تنشط في اليمن، كتتظيم القاعدة، أو هجمات أخرى طالت أهدافاً تقع خارج مسرح الحرب المباشرة في صعدة.⁶⁶

أخيراً، اتهمت الحكومة المتمردين بتلقي دعم أجنبي. وفي حين تردد كبار المسؤولين كالرئيس في توجيه أصبع الاتهام رسمياً للجمهورية الإسلامية، وعلى الرغم من أن اليمن يحتفظ بعلاقات دبلوماسية مع إيران ويستضيف مسؤوليها على نحو منظم بل ويجاهر بدعمه الكامل لبرنامج الأخيرة النووي،⁶⁷ فإنه لمح بقوة

الدولة المركزية وإعلان الرئيس غير مؤهل للحكم".⁵⁷ بالتالي، يزعم البعض أن الجيش اضطر لشن حرب دفاعية نيابة عن الدولة. ويوضح رشاد العليمي، نائب رئيس الوزراء، ذلك بقوله: "ما من حكومة ترغب بالحرب، وحكومتنا، مثل غيرها، ترغب أن يعيش مواطنوها بسلام. منذ عام 2004، بُذلت جهود عديدة وأنشئت حوالي سبع أو ثماني لجان وساطة، غير أن هذه المحاولات مُنيت بالفشل. لقد كان الحل العسكري هو الملاذ الأخير".⁵⁸

وفقاً لتوصيف الحكومة، سعى الحوثيون لنشر عقيدة دينية أصولية، عاكسين تحولاً من الزيدية المعتدلة إلى الجعفرية (الشيعية الاثني عشرية). يقول علي الأنسي، رئيس جهاز الأمن القومي: "استورد حسين الحوثي وعبد الله الرزامي العديد من الاحتفالات والممارسات من الشيعة الإثني عشريين، وقد تسبب هذا في حدوث توتر".⁵⁹ ومؤخراً، في آذار/مارس 2009، استغل عبد الملك الحوثي مناسبة عيد المولد النبوي (احتفال مثير للجدل ينتقده العديد من علماء الدين السنة) لحشد مناصريه.⁶⁰ وبالإشارة إلى أحداث كهذه، يتهم المنتقدون الحوثيين بكونهم طائفين مقوضين للوحدة الوطنية.⁶¹ وعلى حد قول أحد أفراد الحزب الحاكم الذي يؤكد على هويته الزيدية الهاشمية: "لقد اختطف حسين الحوثي الزيدية كما اختطف أسامة بن لادن الإسلام".⁶²

⁵⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في المؤتمر الشعبي العام وعضو في مجلس الشورى، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009. وفقاً لمسؤول رفيع في الحكومة: "من الواضح أن المتمردين منظمون ومدربون على نحو جيد ولديهم القدرة على مواجهة الجيش". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 7 كانون الثاني/يناير 2009.

⁵⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العليمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009. من بين هذه الطقوس يتميز احتفال غدِير خم برمزية خاصة. يُحتفل به كل عام في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة، وهو موضع خلاف كبير بين السنة والشيعة. يحتفل في هذا اليوم بالاختيار المفترض للإمام علي كخليفة للنبي وبهذا تُنكر شرعية أبي بكر، الخليفة الأول الذي يعترف به السنة. وهكذا يُمكن النظر لهذا اليوم باعتباره إعادة تأكيد على مطالبة الهاشميين بالسلطة حيث أن علي، الذي يدعو الانتساب إليه، كان صهر النبي في حين كان أبو بكر واحداً من الصحابة. تم التخلي عن هذا الاحتفال بعيد قيام الثورة ولكن عاد الاحتفال به في التسعينيات وسط المحاولات الإحيائية للزيديين. منذ عام 2004، سعت السلطات غير مرة لمنع ما سماه البعض "احتفالاً للمتعاطفين مع الحوثيين" (انظر لوران بونفوا، "العلاقات الدينية والوطنية بين اليمن والمملكة العربية السعودية: سلفية مستوردة؟"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، باريس، 2007، ص. 356، مستشهداً بمسؤول أمني في محافظة لحج) أو احتفالاً بالحكم الهاشمي مساوياً لـ "توكيد الحوثيين على رفضهم الديمقراطية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العليمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009.

⁵⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009. من بين هذه الطقوس يتميز احتفال غدِير خم برمزية خاصة. يُحتفل به كل عام في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة، وهو موضع خلاف كبير بين السنة والشيعة. يحتفل في هذا اليوم بالاختيار المفترض للإمام علي كخليفة للنبي وبهذا تُنكر شرعية أبي بكر، الخليفة الأول الذي يعترف به السنة. وهكذا يُمكن النظر لهذا اليوم باعتباره إعادة تأكيد على مطالبة الهاشميين بالسلطة حيث أن علي، الذي يدعو الانتساب إليه، كان صهر النبي في حين كان أبو بكر واحداً من الصحابة. تم التخلي عن هذا الاحتفال بعيد قيام الثورة ولكن عاد الاحتفال به في التسعينيات وسط المحاولات الإحيائية للزيديين. منذ عام 2004، سعت السلطات غير مرة لمنع ما سماه البعض "احتفالاً للمتعاطفين مع الحوثيين" (انظر لوران بونفوا، "العلاقات الدينية والوطنية بين اليمن والمملكة العربية السعودية: سلفية مستوردة؟"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، باريس، 2007، ص. 356، مستشهداً بمسؤول أمني في محافظة لحج) أو احتفالاً بالحكم الهاشمي مساوياً لـ "توكيد الحوثيين على رفضهم الديمقراطية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العليمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009.

⁶⁰ "الديار" (صحيفة أسبوعية مستقلة تصدر في صنعاء)، 15 آذار/مارس 2009.

⁶¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

⁶² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مفكر وعضو في المؤتمر الشعبي العام، صنعاء، 13 كانون الثاني/يناير 2009.

⁶³ يقول مسؤول مختص باليمن في منظمة دولية غير حكومية: "فرض الحوثيون قوانين شديدة الصرامة في المناطق التي يسيطرون عليها. فعلى سبيل المثال، يمنعون المدرسين الذكور من العمل في مدارس الفتيات، والنتيجة أن الفتيات لم يعدن قادرات على التعلم" بسبب قلة عدد المعلمات الإناث. ولكن "في الوقت ذاته يبدو أنهم يؤدون دوراً إيجابياً في حل النزاعات المحلية طويلة الأمد. وهكذا يكسبون ثقة المجتمع عن طريق القيام بأعمال كهذه". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 13 كانون الثاني/يناير 2009.

⁶⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في حقوق الإنسان، 5 كانون الثاني/يناير 2009. انظر أيضاً المؤتمر نت (موقع إخباري تابع للمؤتمر الشعبي العام)، 14 حزيران/يونيو 2007؛ "اليمن"، تقرير منظمة العفو الدولية السنوي 2007. في حزيران/يونيو 2008، حكمت محكمة خاصة على عبد الكريم الخيواني، رئيس تحرير سابق لجريدة "الشورى" (ناطقة باسم تحالف القوى الشعبية، حزب زيدى) وصحفي معروف بانتقاده للحكومة، بالسجن ست سنوات لصلاته مع المتمردين. أطلق سراح الخيواني، الذي سُجن سابقاً لكتابتته عن حرب صعدة، بموجب أمر رئاسي في أيلول/سبتمبر 2008. في كانون الثاني/يناير 2009 صادقت المحكمة على حبسه ولكنه بقي خارج السجن. نيوزيم (موقع إخباري إلكتروني مستقل)، 31 كانون الثاني/يناير 2009. ألغى الرئيس صالح الحكم بعد شهرين.

⁶⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العليمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009.

⁶⁶ يُعرب الدبلوماسيون الغربيون خاصة عن تشكيكهم. يقول أحدهم: "ليس هناك أدلة على محاولة الحوثيين شن هجمات إرهابية ضد المصالح الغربية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009.

⁶⁷ "سبأ نيوز" (وكالة الأنباء اليمنية الرسمية)، 14 أيار/مايو 2009.

[جنود الحكومة وأفراد القبائل المتحالفة معها] الذين قاتلوا ضد الاشتراكيين خلال حرب عام 1994 ومن ثم باعوا أسلحتهم".⁷³

يشكك سياسيو المعارضة في الادعاءات التي تتهم إيران بتوفير الدعم المالي أو العسكري للمتمردين،⁷⁴ في حين يرفض الحوثيون جملة وتفصيلاً أي تلميح إلى تواطؤهم مع طهران.⁷⁵ ويتفق الدبلوماسيون الغربيون وغيرهم في صنعاء مع هذا القول بالإجمال، ولكنهم يقررون بإمكانية تورط بعض اللاعبين الإيرانيين من خارج الحكومة. ويقول أحد الدبلوماسيين الغربيين مُلخصاً رؤية أكثر عمومية: "ليس هناك من أدلة واضحة على تورط إيراني، لكن هناك إشارات عن دور تلعبه المؤسسات الخيرية الإيرانية. وإجمالاً، يبدو النزاع مدفوعاً بالمظالم الداخلية في المقام الأول".⁷⁶

ب. رواية الحوثيين والإحيائيين الزيديين

تتعارض رواية الحوثيين والإحيائيين الزيديين تعارضاً مباشراً مع رواية الحكومة. وعلى الرغم من أن هذه الرواية تردُّ على أسئلة أفراد ذوي برامج ومواقف متنوعة، وبعضهم شديد الانتقاد للجوء المتمردين للعنف،⁷⁷ فإنها تتحد في رؤيتها أن الحكومة تُخطئ إذ تستهدف كل الزيديين.⁷⁸ يقول أحد قياديي حزب الحق: "الحوثيون هم مجرد اسم. إن الهدف الحقيقي للحكومة هم الزيديون". يدعي كل من الزيديين والحكومة أن ما يقومون به يُعد دفاعاً عن النفس. يقول أحد علماء الدين الزيديين:

لقد تم استهدافنا [الزيديون الهاشميون] كشعب وجماعة وتقاليده على نحو عنيف جداً. لقد مُنعنا من ممارسة حقوقنا وحرماننا من الوظائف والتعليم وأغلقت مدارسنا ومعاهدنا. إن هذا القمع أقتع الكثيرين بضرورة الدفاع عن أنفسهم.⁷⁹

إلى التورط الإيراني مع المتمردين. ووفقاً لما يقوله أحد المسؤولين:

بدأ "الشباب المؤمن" نشاطاتهم تحت عدة مسميات في الثمانينيات في سياق الثورة الإيرانية. وقد تدربوا في إيران في عهد آية الله الخميني بهدف نشر الثورة. بين تلك الفترة وعام 2004 أعد الحوثيون أنفسهم لبدء عملياتهم ضد الدولة.⁶⁸

في عام 2005 حكمت محكمة جنائية خاصة على اثنين من العلماء الزيديين، هما يحيى الديلمي ومحمد مفتاح، بالإعدام وقضاء ثمانين سنوات في السجن بناء على التهم التالية: إقامة صلات مع إيران، ودعم المتمردين والسعي لقلب النظام.⁶⁹ يتعين على الحكومة تدعيم هذه الاتهامات بالأدلة الدامغة،⁷⁰ حيث قتل الرئيس صالح عام 2009 من دور اللاعبين الخارجيين.⁷¹ وللخفيف من حدة اتهاماتها، تدعي الدولة اليوم أن التمويل يُمكن أن يكون قد أتى عن طريق جهات دينية أو اقتصادية عوضاً عن كونه أتياً مباشرة من الدبلوماسيين الإيرانيين إلى قادة المتمردين. ويُجادل علي الأنسي قائلاً:

على الرغم من إنكارهم وحقيقة تصريحهم أنهم ضد التدخل الأجنبي، فإن الإيرانيين مولوا الحوثيين من خلال الحوزات⁷² والمؤسسات الخيرية، على سبيل المثال. علاوة على ذلك، فإن مقدمي البرامج الإذاعية والتلفزيونية الإيرانية يدعون لنصرة الحوثيين ويشيرون إليهم بوصفهم شيعة اثني عشرينيين.

بيد أنه يُضيف: "لا يقوم الإيرانيون بتسليح الحوثيين. الأسلحة التي يستخدمها هؤلاء مصدرها اليمن. وأكثرها يأتي من المقاتلين

⁷³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

⁷⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع حسن زيد، الأمين العام لحزب الحق، صنعاء، 2 كانون الثاني/يناير 2009.

⁷⁵ على حد قول يحيى الحوثي: "ليس لإيران أي دور على الإطلاق، بل يتهمها الغرب والسعودية والحكومة اليمنية بذلك. في واقع الأمر، نحن لسنا بحاجة الإيرانيين بأي شكل من الأشكال، إذ أن للزيديين رموزهم ومرجعياتهم وأسبابهم الخاصة للقتال، وهي أسباب كافية لشن التمرد". مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات، برلين، 3 شباط/فبراير 2009.

⁷⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي غربي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009. يضيف سفير عربي قائلاً: "على الرغم من احتمال عدم وجود أي دعم مالي قادم مباشرة من الدولة الإيرانية، فإن الأموال الأجنبية تصل لأيدي المتمردين حتماً. فالشركات الإيرانية تستثمر في نظيراتها اليمنية، ومن ثم تذهب الأموال إلى الحوثيين عن طريق العائلات المحلية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي غربي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

⁷⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عالم دين زيدي، صنعاء، 17 كانون الثاني/يناير 2009.

⁷⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع حسن زيد، الأمين العام لحزب الحق، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

⁷⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009. اشتكى ناشط في حقوق الإنسان من صنعاء دافع عن أفراد سُجنوا في سياق حرب صعدة قائلاً: "إنني علماني، غير أن الوضع السياسي أدى بي للنظر بشكل أعمق إلى جذوري الزيدية والهاشمية.

⁶⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العليمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009. ⁶⁹ أطلق سراح الاثنين بموجب عفو أصدره الرئيس صالح في أيار/مايو 2006 ولكن ضغوط الشرطة والقضاء عليهما استمرت وواجه احتمال الاعتقال مجدداً. جرى اعتقال محمد مفتاح مرة أخرى في أيار/مايو 2008 بعد انتقاده للعمليات العسكرية في صعدة في الصحافة اليمنية ومن ثم أفرج عنه بعد عدة أشهر. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عالم دين زيدي، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009.

⁷⁰ في كانون الثاني/يناير سلمت وزارة الداخلية مجموعة الأزمات تقارير تدعي توثيق الدعم الإيراني المالي والأيديولوجي واللوجستي. مع ذلك فإن التقارير (المعنونة "سري للغاية") أثارت أسئلة أكثر مما قدمت إجابات. لم تكن التقارير مشفوعة بمصادر على نحو كافٍ وكثيراً ما جاءت من مؤسسات غير محددة الهوية. وبالمُجمل، بدت الأدلة ناقصة ومتحيزة.

⁷¹ لدى سؤاله عن إيران، قلل صالح من دور اللاعبين الخارجيين وأقر أن كلاً من ليبيا وإيران وقطر قد حاولت التوسط. كما أنكر تورط حزب الله اللبناني، مُلمحاً في ذات الوقت لإمكانية وجود علاقات بين الحوثيين والحركة اللبنانية وإمكانية أن تكون مهارات عسكرية معينة قد نُقلت من لبنان إلى اليمن. "الحياة" (صحيفة عربية يومية)، 28 آذار/مارس 2009.

⁷² الحوزات هي مدارس دينية شيعية ريفية.

الوحيدة القادرة على التنافس مباشرة مع الأسرة السعودية الحاكمة".⁸³

وإذ يُنكرون امتلاكهم أي خطة سياسية، يتهم الزيدون الحكومة بالتحرك مدفوعة بالأيديولوجيا والاستياء التاريخي، كما يوضح مفكر زيدي وصاحب مؤسسة أبحاث في صنعاء: "ليس للحوثيين أي أجندة على الإطلاق، فهم لم يطرحوا شروطاً للسلام سوى أن يُتركوا وشأنهم - وألا يُهاجموا وتُصَف قراهم".⁸⁰ ويُشير صحفي مرتبط بالحزب الاشتراكي اليمني المعارض إلى حقيقة أن

ما من مرة أعلنت فيها الدولة نهاية القتال إلا وتوقف الزيدون عنه. لقد احترموا قراراتها ولم يردوا بالمثل إلا حينما هاجمهم الجيش. لم يكن لدى حسين الحوثي خطط من أي نوع. إن الحكومة والجيش هما المسؤولان، بأخطائهما وجورهما وعنقهما، عن التسبب بالتمرد.⁸¹

في صورة معاكسة لتأكيدات الحكومة عن وجود صلات إيرانية، يؤكد المتمردون وحلفاؤهم أن السلطات تتصرف بالنيابة عن قوى أجنبية أبرزها المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة،⁸² ويتهمون الرياض باستهدافهم كهاشميين. يدعي الكثيرون أن الرياض تزود الحكومة بالأسلحة وتشجعها على متابعة القتال. وعلى حد قول أحد علماء الدين الزيديين: "المملكة العربية السعودية تخشى الهاشميين. إنهم الفئة

في إحدى المرات، عندما سلمت جواز سفري إلى أحد ضباط الهجرة في المطار سألتني إذا كنت هاشمياً، كما لو أن السؤال عن أصولي مشروع قانونياً، كما لو أن القانون ينص على ذلك ويؤيد مثل هذا التمييز". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 2009.

⁸⁰ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مثقف زيدي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

⁸¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 17 كانون الثاني/يناير 2009.

⁸² مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع يحيى الحوثي، برلين، 3 شباط/فبراير 2009. في حين تعرضت الحكومة لضغوط حكومات الولايات المتحدة وأوروبية بسبب سياساتها المتناقضة في مكافحة الإرهاب - كإطلاق سراح سجناء يشتبه بتورطهم في هجمات، والأحكام المخففة، وإخفاء المعلومات عن المحققين الأجانب (كمحقي مكتب التحقيقات الفدرالي في قضية الهجوم على المدمرة الأمريكية يو إس إس كول) - فإنها لم تتعرض لانتقاد مباشر أو علني بخصوص سلوكها في صعدة على الرغم من الطبيعة العنيفة للصراع وتهديده لاستقرار اليمن. ينظر المتمردون إلى الحكومات الغربية بوصفها متورطة في سلوك الحكومة. المصدر السابق نفسه. تؤكد شخصية دينية زيديّة ذلك بالقول: "لو أن هناك إرادة لوقف الحرب لكان تم التوصل إلى حل. غير أن الحكومة تريد للحرب الاستمرار كي تستمر هي بتلقي الدعم المالي من المملكة العربية السعودية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عالم دين زيدي، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009. لقد عززت ادعاءات المتمردين عن وجود دعم غربي من شعبية الشباب المؤمن ومكنت عبد الملك الحوثي من الظهور بمظهر المدافع عن هوية اليمن الإسلامية. انظر "الديار"، 4 كانون الثاني/يناير 2009. في منتصف كانون الثاني/يناير 2009، خلال حرب غزة، نظم القادة الحوثيون مظاهرات ضخمة دعماً للغزاويين، منددين بإسرائيل والولايات المتحدة وشبهوا حصار غزة بذلك الذي يدعون أنه مفروض على سكان محافظة صعدة. "الديار"، 18 كانون الثاني/يناير 2009.

⁸³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عالم دين زيدي، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009. بتصويرهم الحرب كرد على التعديتات السعودية والوهابية، سعى الحوثيون كذلك لتعزيز هويتهم اليمنية التي يُشكك فيها البعض بالنظر إلى نسبهم الهاشمي. ومما يقوض صحة هذا الادعاء بعض الشيء حقيقة أن الملكيين الزيديين كانوا قد تلقوا دعماً سعودياً هائلاً خلال الحرب الأهلية التي أعقبت قيام الثورة في الستينيات.

العشوائي.⁸⁸ إن وجود الآلاف من النازحين بعد مدة طويلة من نهاية الجولة الخامسة⁸⁹ يوحي بوجود مشاكل مستمرة، بما في ذلك أضرار لحقت بالمنازل وخوف من الانتقام الذي قد يقوم به المتمردون أو جماعات متعاطفة معهم أو قبائل مساندة للحكومة.⁹⁰

إن الانخراط المتزايد، المدفوع بالتكافل الاجتماعي، للمليشيات القبلية مع قوى الحكومة أو المتمردين أذكى الصراع وساهم في استمراره. وبحسب بعض الروايات، تحولت الحرب إلى نزاع قبلي بين تحالفي قبائل حاشد المساندة للحكومة وقبائل بكيل المساندة للمتمردين، وهما أكبر قبيلتين في مرتفعات شمال اليمن.⁹¹ في كانون الأول/ديسمبر عام 2008، هددت المناوشات بين قبائل منتمية إلى كلا التحالفين بجولة جديدة من القتال⁹² كما في الاشتباكات القبلية التي وقعت في محافظات عمران إلى الجنوب من صعدة ومحافظه الجوف شرقها في كانون الثاني/يناير 2009. يدعي المتمردون وغيرهم أن قبيلة حاشد أقامت نقاط تفتيش تستهدف الحوثيين ومناصريهم وتهدف على ما يبدو إلى الضغط على الحكومة لتبني موقف أكثر صرامة.⁹³ إن هذه

⁸⁸ "لم يمارس الحوثيون العنف ضد المدنيين المحايدين قط؛ لقد هاجموا فقط الأشخاص الذين كانوا يدعمون الحكومة ويتعاونون مع الجيش". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، عالم دين زبيدي، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009.

⁸⁹ في كانون الثاني/يناير 2009، أعلن برنامج الغذاء العالمي أنه قدم المساعدات لـ 7500 شخص في مخيمات بمديريات الظاهر وسحار. رسالة "صعدة أهدت" الإخبارية نصف الشهرية، كانون الثاني/يناير 2009. إن هذه لا تعدو كونها نظرة مجتزأة إلى المنطقة المنكوبة، إذ إن عدد النازحين في ذلك الوقت كان بالتأكيد أكبر من ذلك.

⁹⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في منظمة إنسانية دولية غير حكومية، باريس، 28 كانون الثاني/يناير 2009.

⁹¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي مستقل، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009. رفض أحد زعماء بكيل الفكرة القائلة بأن صراع صعدة قد تحول إلى حرب بين قبيلتي حاشد وبكيل، مشيراً إلى أن قبيلته ساندت الحكومة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نائب في البرلمان من صعدة، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009. وفي حين يبدو تجمع قبائل حاشد مركزياً، وبخاصة تحت سلطة الشيخ عبد الله الأحمر (حتى وفاته في كانون الأول/ديسمبر 2007)، فإن تحالف بكيل أكبر وذو بنية أقل مركزية. نتيجة لذلك، فإن القبائل المرتبطة ببكيل اتخذت مواقف مختلفة في الحرب.

⁹² الأسبوع (أسبوعية مستقلة تصدر في صنعاء)، 4 ديسمبر/كانون الأول 2008.

⁹³ اتهم عبد الملك الحوثي العصيمات (قبيلة هامة في تحالف حاشد) بفرض حصار على صعدة من خلال نقاط التفتيش التي منعت وصول المؤن وحدث من حرية الحركة. "إيلاف"، (صحيفة مستقلة تصدر في صنعاء)، 6 كانون الثاني/يناير 2009؛ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مواطن من منطقة رازح في محافظة صعدة، صنعاء، 5 كانون الثاني/يناير 2009. يزعم أحد شيوخ صعدة القبليين شارك في محاولات وساطة متعاقبة أن حاشد أخذت ما يربو على 50 رهينة في شهر كانون الثاني/يناير 2009 وحده. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، شيخ قبيلة من محافظة صعدة، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009. وفي حين أن نقاط التفتيش هذه استهدفت قبائل موالية للحوثيين، يُحتمل أن الهدف منها كان تشجيع الحكومة على تشديد سياساتها. يوضح خبير تنمية أجنبي في صعدة مدى تعقيد الدور الذي قامت به حاشد: "يملك أفراد تحالف حاشد الكثير من الأراضي في صعدة ولكن

IV. صراع مستفحل

لا تعالج أي من الروايتين الصراع بكل تشعباته؛ وعلى نحو خاص، تتجاهل كلاهما العوامل غير الأيديولوجية التي تفسر بدايته واستمراره: كترامك المظالم المتبادلة حتى بين المدنيين، وتنامي النزعات القبلية، والتغير في ميزان القوى وظهور اقتصاد للحرب.

أ. شكاوى متزايدة وتورط قبلي متعاظم

إن تدمير القرى والبنية التحتية عن طريق القصف البري والجوي والعنف العشوائي الذي يقوم به الجيش والشرطة⁸⁴ أدى إلى تضخيم الشكاوى ليس فقط بين الهاشميين عامة والزبيديين الإحيائيين خاصة، بل وعلى نحو أوسع بين المدنيين في جميع المحافظات الشمالية (صعدة والجوف وعمران وحجة). وقد انحاز الكثيرون ممن لم يتعاطفوا أصلاً مع حسين الحوثي إلى المتمردين، ورفعوا السلاح في بعض الحالات تضامناً مع أبناء قراهم أو أقاربهم أو أبناء عشيرتهم الذين تضرروا خلال القتال. يقول أحد البرلمانيين: "إن الحوثيين يزدادون قوة مع كل جولة من الحرب. إن القتال المتجدد سيزيد من تأثير المتمردين ويوسع من دائرة الحرب".⁸⁵ ويوافق الرأي أحد أعضاء مجلس الشورى من المؤتمر الشعبي العام إذ يقول: "يبدو أن للحوثيين الكثير من المناصرين، ليس لدوافع دينية ولكن لأن السكان يشعرون بالتميز وبأنهم مستثنون من سياسات التنمية. للأسف، لم يساهم تدمير القرى في مقاومة ذلك الانطباع لديهم".⁸⁶

على نحو مماثل، ساعد المتمردون في إذكاء الغضب إذ انخرطوا في أعمال همجية كالسلب والخطف التي شملت جنوداً ورجال قبائل حليفة،⁸⁷ في حين ينكرون بإصرار لجوءهم إلى العنف

⁸⁴ تدريجياً، يساهم صندوق إعادة إعمار صعدة الذي أحدثته الدولة في توثيق حجم الدمار، بيد أن المعطيات فيه تبقى عرضة للتلاعب.

⁸⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 5 كانون الثاني/يناير 2009.

⁸⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009.

⁸⁷ تفيد التقارير أن مقتل حسين الحوثي في أيلول/سبتمبر 2004 أدى لصعود جيل من قادة المتمردين والمسلحين الأقل تسامحاً. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في المجتمع المدني، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009. سلط الأجانب القاطنون في صعدة الضوء على عنف المتمردين: "لقد وثقنا بحسين الحوثي وتبيننا أنه لن يهاجم الأجانب، ولكننا الآن أقل ثقة مع وجود المسلحين الجدد المؤدلجين". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 18 كانون الثاني/يناير 2009. يقول أحد عمال الإغاثة الإنسانية: "إن ضعف حرية الوصول إلى الميدان ليست نتيجة سياسات الحكومة وحدها. لقد واجهنا مشاكل في بعض المناطق التي يسيطر عليها المتمردون كذلك. يعتقد السكان أن الحوثيين متوحشون جداً. إنهم يقومون بترهيب الناس الذين يعتبرونهم محايدين، بما في ذلك عمليات الخطف". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، ممثل عن منظمة إغاثة إنسانية دولية غير حكومية تعمل في اليمن، صنعاء، 5 كانون الثاني/يناير 2009.

وعملاء آخرين للدولة يجعل هذا الصراع متميزاً عن النزاعات القبلية العديدة التي تقع بانتظام ويتم حلها عادة بمساعدة العرف القبلي التقليدي.⁹⁷

ب. حرب على الخلافة؟

باعتبار أن الرئيس صالح في أواخر العقد السادس من عمره وأنه يُمسك بزمام السلطة منذ عام 1978، أصبحت مسألة خلافته موضع نقاش عام متزايد. وعلى الرغم من الاعتقاد السائد بأن الرئيس يُهيئ ابنه أحمد علي صالح قائد القوات الخاصة والحرس الجمهوري كي يخلفه، فإن ظهور جمهورية وراثية لا يحظى بالإجماع الكافي في أوساط النخبة الحاكمة. ووفقاً لما يقوله بعض المحللين اليمنيين، يُمكن أن تكون هذه القضية أحد الأسباب الكامنة وراء حرب صعدة التي يصفها مفكر إسلامي بـ"اللعبة داخل البيت"، أي أنها حرب مدفوعة جزئياً بالتنافس بين الفصائل الحاكمة.⁹⁸

من بين أولئك الذين يُعتبرون من منتقدي فكرة الخلافة اللواء علي محسن الأحمر، وهو قائد الفرقة الأولى مدرع المسؤولة عن المنطقة الشمالية الغربية وبالتالي العمليات العسكرية في صعدة منذ عام 2004. وعلى الرغم من عدم ظهوره بمظهر المطالب بالسلطة الرئاسية، يقول البعض إن علي محسن (يُشار إليه خطأ في بعض الأحيان على أنه الأخ غير الشقيق للرئيس - ينتمي الرجلان إلى نفس القرية) كان على خلاف مع نجل الرئيس⁹⁹ وأنه قام بتحريك قبائل معينة ومليشيات إسلامية، بمن فيهم الجهاديون، ليدعموا الجيش أثناء الحرب. ووفقاً لقول أحد علماء الدين الزبيديين: "لقد جعلته الحرب أقوى وعززت دور الوهابيين ضمن الدولة".¹⁰⁰

يؤكد آخرون أن الرئيس يستخدم الحرب لإضعاف علي محسن. إذ انخرطت وحدات الجيش تحت إمرة هذا الأخير في استخدام مفرط وعشوائي للقوة، مما أكسبه لقب "علي كاتوشا".¹⁰¹ وبمعزل عن صحة التسمية أو عدمها، فإن هذا الوصف يُساعد على إظهار الرئيس صالح وابنه كقادة أكثر عملية، قادرين على وضع حد للحرب، في حين يبدو علي محسن كمن يسيء إدارة مكافحة التمرد. إن العمليات الحربية الفاشلة والكمائن التي نصبها المتمردون وغياب الاتصالات التي أدت لأن يضرب الجيش مواقعه بنفسه كلها ولدت شائعات عن حدوث انشقاق في قيادة

وحوادث أخرى غيرها تعكس كيف أصبحت الثارات القبلية إحدى المتغيرات الجديدة والخطيرة في الصراع. ويعرب مسؤولو الحكومة عن قلقهم من أن تصبح الحرب القبلية حرباً مستقلة بذاتها.⁹⁴

لقد كان للنزعة القبلية في الصراع آثار مفوتة. فمن جانب، يمكن لها أن تشير إلى تراجع للدوافع الأيديولوجية أو الدينية. يلاحظ محمد ثابت، المدير التنفيذي لصندوق إعادة إعمار صعدة:

قد تستمر المناوشات على الرغم من وقف إطلاق النار، ولكنها ستكون بين القبائل. الوضع في صعدة الآن مشابه لمناطق أخرى في اليمن. المشكلة أنه ما إن ينشب قتال بين قبيلتين في محيط صعدة حتى يقوم الإعلام بتوصيفه على أنه واقع بين الحوثيين والحكومة على خلفية سياسية أو دينية وأنه يرقى إلى خرق لوقف إطلاق النار. ليس في الأمر شيء مما سبق ذكره.⁹⁵

من ناحية أخرى، وفي المجتمع اليمني المغرق في القبلية، فإن "قبلية" الحرب تعني أنها تتوسع لأكثر من مداها الأصلي بكثير. تتنافس القبائل وقادتها على المناصب الجديدة لتوسيع سلطتها؛ وفي حين أن بعض الفئات مهمشة فإن فئات أخرى تحصل على مساعدة الحكومة مقابل قتالها للمتمردين.⁹⁶ كذلك ليس صحيحاً أن الحرب القبلية قد حلت محل الصراع الأصلي، بل إن الأخيرة تُكمل الأول وتجعل من إيجاد حل لأي منهما مهمة معقدة. وفي الواقع، فإن حجم المنطقة المتأثرة وعدد القبائل المشاركة وتورط الجيش

أصولهم ليست من هناك، بل تتركز قاعدتهم في محيط حجة ذات الأراضي الأقل خصوبة. خلال الحرب، خرب الحوثيون عدة مزارع تعود ملكيتها لأفراد من حاشد، بما في ذلك مزرعة الشيخ عبد الله الأحمر [كبير زعماء قبيلة حاشد سابقاً ورئيس البرلمان]. كان أفراد حاشد يقاتلون بجانب الحكومة، بيد أنهم شعروا أنها قد تخلت عنهم بعد نهاية الحرب إذ لم يتلقوا شيئاً في المقابل، وهكذا لجؤوا إلى إقامة نقاط التفتيش واحتجاز السيارات على الطرقات واختطاف الناس من صعدة في محاولة للضغط على الحكومة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009. عثمان المجلي، نائب في البرلمان اليمني من الحزب الحاكم ومن أبناء صعدة: "يقطعهم الطريق إلى صعدة يدفع أهل حاشد الحكومة لاتخاذ موقف أشد في مواجهة الحوثيين الذين احتجزوا رهائن من قبائل حاشد. في الوقت الراهن، لا ترغب الحكومة بممارسة ضغط مفرط على الحوثيين وذلك في سبيل الحفاظ على السلام الهش". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009.

⁹⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

⁹⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد ثابت، مدير تنفيذي، صندوق إعادة إعمار صعدة، صنعاء، 21 آذار/مارس 2009.

⁹⁶ لقد ولدت هذه الاستراتيجية عدم استقرار لا يستهان به داخل القبائل حيث بات الأفراد الأصغر سناً ينتهزون الفرص ليحلوا محل الشيوخ التقليديين الأكبر سناً. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي مستقل، صنعاء، 14 آذار/مارس 2009. خلال الجولات المتعاقبة، ازدادت حدة التوتر نتيجة الشائعات بأن الحكومة ستصادر أراضي في صعدة لبناء قاعدة عسكرية عليها. استعملت الحكومة التهديد بالمصادرة لإقناع القبائل بدعم الجيش. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع خبير تنمية دولي، 4 كانون الثاني/يناير 2009.

⁹⁷ بول دريش، "أعراف برط: نصوص وترجمات لوثائق قبلية من اليمن" (صنعاء، 2006).

⁹⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مفكر إسلامي وصحفي، صنعاء، 19 كانون الأول/ديسمبر 2008.

⁹⁹ غريغوري جونسون، "مرونة جيش عدن-أبين اليمني"، *Terrorism Monitor*، الجزء 4، رقم 14 (تموز/يوليو 2006).

¹⁰⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عالم دين زبيدي، كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁰¹ يُشير هذا اللقب بجلاء إلى وزير الدفاع العراقي السابق سيء الصيت "علي الكيماوي". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي مستقل، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

والمخدرات والسلاح والأشخاص إلى السعودية ربحاً مالياً كبيراً.¹⁰⁷ لا تتمتع الحدود السعودية بحراسة كبيرة، مما يجعل التجارة عبر الحدود مورداً هاماً للربح وواحداً من الفوائد الخفية للحرب.¹⁰⁸ يعتقد البعض أن العديد من شيوخ قبائل صعدة البارزين هم من أهم تجار السلاح في البلاد ويتمتعون بعلاقات إقليمية ودولية؛ يعني ذلك، وفقاً لكلمات دبلوماسي أجنبي: "أن لهم مصلحة في استمرار الحرب".¹⁰⁹

علاوة على ذلك، فإن غياب الرقابة فيما يتعلق بالموازنة العسكرية المتعاطمة شجع الفساد وعزز الاتجار داخل الجيش. على امتداد فترة الحرب، طالب قادة الجيش بانتظام بأسلحة إضافية؛ وعلى الرغم من أن بعض هذه الأسلحة استُخدم ضد المتمردين، فإن قسماً لا يُستهان به ذهب إلى الأسواق الإقليمية (الصومال تحديداً)¹¹⁰ والمحلية. كما أن الكثير من السلاح وجد في نهاية المطاف طريقه إلى أيدي المتمردين الذين كان يُفترض أن يُقاتلهم. يقول أحد أعضاء البرلمان المعارضين: "الحوثيون يجمعون الأموال من مناصريهم والتجار المحليين ومن ثم يشترون سلاحهم من الجيش مباشرة. إن هذه واحدة من المفارقات الحقيقية في الحرب".¹¹¹

إن المليشيات المسلحة الأشبه بالمرتزقة هي منتج ثانوي آخر من منتجات الحرب، حيث تتكرر الادعاءات أن الحكومة دفعت أموالاً

الجيش.¹⁰² وبحسب كلمات أحد الدبلوماسيين الغربيين فإن الحرب كانت "كأساً مسمومة مُقدمة إلى علي محسن".¹⁰³

يتقبل اليمنيون على نحو عام حقيقة وجود تنافس داخلي على القيادة على الرغم من ضعف توثيق هكذا حقائق. ويعتقد الكثيرون أن هذا التنافس أسهم في إذكاء أوار الحرب إذ سعت عدة فئات داخل النظام لتوظيف الصراع في صعدة لمصلحتها. وعلى نحو خاص، يدعي المراقبون والناشطون الذين شاركوا في محاولات الوساطة أن هذا التنافس أعاق عملهم حين سعى كل طرف لتقويض الآخر بحيث كانت النتيجة غياباً للمنطقية من جانب الحكومة.¹⁰⁴

ج. نشوء اقتصاد الحرب

ساهم الصراع في إيجاد اقتصاد حرب يضمن بدوره ديمومتها. فبالنسبة لعدة قبائل، وضباط الجيش ومسؤولي الدولة، برزت الحرب كوسيلة للسيطرة على الحدود المليئة بالثغرات مع المملكة العربية السعودية والخط الساحلي للبحر الأحمر؛ قام القادة القبليون والمسؤولون الكبار بتكديس العتاد العسكري مستفيدين هم أنفسهم من عمليات البيع غير القانونية لمخزونات الجيش. وفي الوقت عينه فإن العمليات العسكرية المتزايدة أعطت مبرراً لزيادة ميزانية الجيش في غياب أية رقابة حكومية أو مستقلة حيث كثيراً ما يحتدم التنافس على هكذا موارد.¹⁰⁵

إن موقع محافظة صعدة على الحدود السعودية وبالقرب من ساحل البحر الأحمر يجعلها ذات أهمية اقتصادية كبيرة. ونظراً لضعف استثمار الدولة في هذه المنطقة الجبلية والنائية نسبياً، إضافة إلى ثقافتها القبلية الاستقلالية، فقد غدا التهريب نشاطاً اقتصادياً رئيساً ومورداً للدخل. لعقود من الزمن، أعطى تهريب القات¹⁰⁶

اليمنية، *International Journal of Middle East Studies*

رقم 21 (1986).

¹⁰⁷ تفيد التقارير أن مدينة الطلح الواقعة 20 كم غرب مدينة صعدة استضافت أكبر سوق للأسلحة في اليمن إلى أن أغلقته السلطات عام 2007. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009. ويسود الاعتقاد بأن هذا النمط من الأعمال سيستمر ولكن على نحو أقل بروزاً.

¹⁰⁸ عام 1934، وقعت حرب قصيرة بين نظام الإمامة في اليمن الشمالي والمملكة العربية السعودية الحديثة الوجود، وانتصرت الأخيرة فسيطرت على ثلاث مديريات جنوبية. تم ترسيم الحدود المتنازع عليها بشكل نهائي في حزيران/يونيو، 2000، غير أن الاتفاق رسم جزءاً واحداً فصص من الحدود التي بقيت مليئة بالثغرات. وكثيراً ما تتجاهل السعودية سيادة اليمن، فتمول القبائل اليمنية وتمنح جوازات سفر سعودية للمواطنين اليمنيين الفاطنيين على مقربة من الحدود في محاولة منها لضمان ولائهم.

¹⁰⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

¹¹⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي يمني، باريس، 5 آذار/مارس 2009.

¹¹¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عيروس النقيب، نائب في البرلمان عن الحزب الاشتراكي اليمني، صنعاء، 21 كانون الثاني/يناير 2009. أكد عدد من أطراف الصراع، بمن فيهم أفراد مرتبطون بالحزب الحاكم، وجود خط إمدادات تابع للمتمردين. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عضو في مجلس الشورى وفي

المؤتمر الشعبي العام، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009. أقر يحيى الحوثي بشراء المتمردين بعض السلاح من ضباط الجيش وأنهم يغمون بعضه في المعارك، مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات، برلين، 3 شباط/فبراير 2009.

¹⁰² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مدير وطني، منظمة إغاثة دولية غير حكومية، صنعاء، 13 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁰³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي غربي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009. بحسب البعض، تعرضت مكانة علي محسن للخطر نظراً لعدم كفاءة الجيش. "المصدر" (صحيفة أسبوعية مستقلة تصدر في صنعاء)، 15 آب/أغسطس. يفيد منير الماوري، الصحفي اليمني المعروف المقيم في واشنطن، بأن علي محسن تلقى تهديدات وأنه كانت هناك خطط لتصفيته جسدياً أو إضعافه سياسياً على الأقل. "يمن بريس" (موقع إلكتروني إخباري)، 28 تموز/يوليو 2008. ينظر البعض إلى الهجوم الذي وقع في أيار/مايو 2008 على مسجد بن سلمان في محافظة صعدة والذي أفادت التقارير أنه كان يستهدف عسكر زعيل، أحد مساعدي علي محسن المقربين، وألقي باللائمة فيه على المتمردين، ينظر إليه بأنه إشارة أخرى على وجود توترات داخلية في القيادة.

¹⁰⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في المجتمع المدني، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009. انظر أدناه أيضاً، 5. أ.

¹⁰⁵ يقول أحد الشيوخ القبليين: "لقد غدت هذه الحرب حرباً على الموارد". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، شيخ قبيلة من محافظة صعدة، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁰⁶ القات أوراق نبات ذي تأثير مُخدّر خفيف تُمضغ يومياً، في جلسات مطولة غالباً، من قبل قطاع واسع من السكان. لقد أضحت هذه الجلسات مناسبة اجتماعية هامة ورمزاً قوياً للهوية الوطنية. دانييل مارتين فارييسكو، "في دلالة المضح: أهمية القات في الجمهورية العربية

في نهاية الأمر، ووفقاً لما يقوله مفكر زيدي ينتمي إلى الحزب الحاكم: "لقد خلقت الحرب مصالح جديدة نشرت ثقافة الحرب. يتعين علينا إيجاد السبل لنشر ثقافة السلام".¹¹⁴

د. تدخل أجنبي مُفترض

إن ملاحظة وجود طرف ثالث متورط على نحو مباشر تُعد أمراً مألوفاً، على الرغم من صعوبة إثبات ذلك أو تبييد الشكوك بوجوده. تدور الكثير من الشكوك بشأن وجود حرب سعودية-إيرانية تُخاض بالوكالة على أرض يمنية. منذ عام 1979، غدا التنافس بين الرياض وطهران محركاً حاسماً للأحداث الإقليمية.¹¹⁵ ولئن كان هذا أشد ما يكون وضوحاً خلال حرب أعوام 1980-1988 بين إيران والعراق (حين عمدت السعودية ودول خليجية أخرى لتمويل العراق)، فقد تقام على نحو أكبر مؤخراً نتيجة صعود إيران الحقيقي أو المفترض في لبنان والساحة الفلسطينية، إضافة إلى أطماع إيرانية مزعومة في المنطقة الشرقية السعودية وعلى امتداد الخليج).¹¹⁶ لقد أصبحت حرب صعدة، ببعدها السني/الشيوعي الكامن والمُضلل في آن معاً، جزءاً من رواية التنافس الجيوسياسي والطائفي. وقد بحثت أطراف أخرى كذلك نفسها عن دور تلعبه؛ عام 2007 اضطلعت قطر بجهود وساطة يرى معظم المحللين أن السعودية ساعدت بإفشالها في نهاية المطاف،¹¹⁷ ويعتقد أن ليبيا قدمت الدعم للمتمردين.¹¹⁸

إذاً يشير المسؤولون إلى دعم مالي وعسكري وسياسي مزعوم يقدمه الإيرانيون للمتمردين،¹¹⁹ في حين يشير آخرون إلى إمكانية أن يكون هؤلاء يتدربون في إيران.¹²⁰ كما يشير مراقبون مستقلون وغيرهم إلى وجود دعم من الجماعات الجعفرية

لقبائل بل وحتى جماعات جهادية كي يساعدها في القتال.¹¹² كما ضاعفت عمليات تجنيد رجال الميليشيات عدد المستفيدين من الحرب وعززت الحافز لإطالتها وتوسيع نطاقها الجغرافي. علاوة على ذلك، يزعم البعض أن الأموال المخصصة لتمويل الميليشيات كثيراً ما ينتهي بها المطاف في جيوب قادتها من الشيوخ. يبدو هذا النوع من الممارسات متفشياً على الرغم من الإقرار الواسع بكونه غير مثبت. يزعم أحد الصحفيين المستقلين:

يُجري مسؤولو الحكومة وضباط الجيش اتصالات مع شيوخ قبائل معينين من تحالف حاشد ويطلبون منهم تشكيل ميليشيات تضم كل منها 1000 مقاتل مثلاً ويدفعون لهم وفق ذلك. عندها يؤلف الشيوخ ميليشيات أصغر عدداً بكثير ويحتفظون لأنفسهم ببقية المال.¹¹³

¹¹² إن هذه قضية حساسة إلى حد بعيد. حين عمدت صحيفة "الشارع" الأسبوعية المستقلة في حزيران/يونيو 2007 إلى نشر تقرير خاص عن الميليشيات، قامت الحكومة بمقاضاة ثلاثة محررين وصحفيين لـ "نشرهم معلومات قد تُضعف معنويات الجيش". مراسلون بلا حدود، تشرين الثاني/نوفمبر 2007. في أيار/مايو 2009 كان لا يزال على الحكومة أن تُقر الأحكام. سلطت إحدى المقالات الضوء على العملية والشبكات التي استمليت بها جماعات قبلية من تحالف حاشد للقتال في صف الحكومة. "الشارع"، 2 حزيران/يونيو 2007. زعمت مقالة أخرى أن الجيش يقوم بتعبئة المسلحين الجهاديين المرتبطين بالقاعدة. "الشارع"، 9 حزيران/يونيو 2007. لطالما أكد الصحفيون أن الجهاديين ينضمون بانتظام إلى قوات الجيش. لا تزال اتهامات وسائل الإعلام غير مثبتة.

¹¹³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي مستقل، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009. أفاد آخرون أن بعض القبائل تطلب رواتب من كل من الحكومة والمتمردين. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مهندس مدني مقيم في صعدة حتى عام 2007، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009. حظيت قضية الميليشيات بأهمية خاصة خلال الجولة الخامسة من الحرب في 2008، حين توعد شيوخ قبائل من حاشد - أبرزهم حسين الأحمر (نائب في البرلمان يُنظر إليه كحليف رئيسي للسعودية) - بحشد "جيش شعبي" قوامه 20,000 رجل لمقاتلة المتمردين. "يمن تايمز"، 10 تموز/يوليو 2009. على حد قول عدة محللين، طلبت الحكومة من الرياض تمويل الميليشيات التي استقادت من مساعدات إسلاميين مثل عبد المجيد الزنداني. (أسس الزنداني جامعة الإيمان الدينية في 1993 بعد إقامته عدة سنوات في السعودية، وهو عضو بارز في حزب الإصلاح وقائد جناحه المتطرف المُسمى الأخوان المسلمون، كما تسري الشائعات عن كونه يقيم صلات مع شبكات جهادية عالمية). انظر غريغوري جونسن: "نبذة عن الشيخ عبد المجيد الزنداني"، *Terrorism Monitor*، الجزء 4، رقم 7 (2006). بحسب بعض التقارير، خشي الرئيس صالح أن تفقد الحكومة السيطرة على الوضع ومن ثم غير رأيه وقرر إنهاء الحرب. يُقال إن هذا القرار أثار سخط العناصر القبلية ورجال الميليشيات الذين وُعدوا بتلقي رواتب. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع حسن زيد، أمين عام حزب الحق، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009. لم تكن مشاعر الإهمال مقصورة على المرتزقة المتجهزين للانضمام لـ "الجيش الشعبي"، إذ يزعم عيروس النقيب، وهو نائب معارض في البرلمان ينتمي لمنطقة يافع الجنوبية: "لقد قُتل أكثر من عشرين جندياً من منطقتي منذ بداية الحرب. لم يحظ جنود الجيش أو المتطوعون الذين قاتلوا إلى جانبهم بالمعاملة اللائقة. لم تتلق عائلات الجرحى أو القتلى أي تعويض وكثيراً ما أُطلعوا على حقيقة ما جرى في مراحل متأخرة. حتماً لقد خلق هذا توترات جديدة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عيروس النقيب،

نائب في البرلمان عن الحزب الاشتراكي اليمني، صنعاء، 21 كانون الثاني/يناير 2009.

¹¹⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مفكر وعضو في حزب المؤتمر الشعبي العام، صنعاء، 13 كانون الثاني/يناير 2009.

¹¹⁵ انظر فيصل بن سلمان آل سعود، "إيران، المملكة العربية السعودية والخليج: سياسات القوة في طور التحول (1968-1971)" (لندن، 2004).

¹¹⁶ لورنس لوير، "سياسات الشيعة الإقليمية: شبكات دينية وسياسية في الخليج" (لندن، 2008).

¹¹⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في المجتمع المدني، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009؛ ومع دبلوماسي غربي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009؛ ومع شيخ قبيلة من محافظة صعدة وعضو في لجان الوساطة أعوام 2004 و2005 و2006، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹¹⁸ ادعت الحكومة أن ليبيا ساعدت المتمردين خلال الجولة الخامسة من الحرب ولكنها تراجعت عن الاتهام لاحقاً. لم يأت المسؤولون اليمنيون على ذكر ليبيا خلال سلسلة من المقابلات أجريت بهدف إعداد هذا التقرير في مطلع عام 2009.

¹¹⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العلمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009.

¹²⁰ "الحياة"، 28 آذار/مارس 2009.

إن هذا الدور في الحقيقة هو أكثر دقة وتعقيداً مما يؤكد المتمردون عادة، فهو ليس مدفوعاً مثلاً بعداء للزيديين أو الهاشميين. في الواقع، هناك ما يدعو للاعتقاد أن عناصر معينة في الرياض دعمت الحوثيين في البداية على نحو غير مباشر، حيث كانت المملكة تستضيف أفراداً من النخبة الزيدية فروا من اليمن إثر الثورة الجمهورية عام 1962.¹²⁷ بدلاً من ذلك، وكما هو الوضع تاريخياً، تتبّع الأطراف السعودية (كالحكومة والمؤسسات الدينية وجهاز الأمن والقبائل وجماعات المعارضة ورجال الأعمال) سياسات متباينة وأحياناً متعارضة في اليمن المجاور، ممولة قطاعات قبلية أو دينية أو عسكرية في المجتمع. يرى البعض مصلحة في تقويض سلطة الحكومة لمنع اليمن من أن يصبح منافساً إقليمياً أو أن يحذو حذو الحلفاء القبليين المستائين من السيطرة المركزية. ويؤمن الآخرون بضرورة تقوية الحكومة خوفاً من انتقال عدم الاستقرار في اليمن إلى المملكة.

هـ. صمت غربي

إن كان التدخل الإقليمي احتمالاً قائماً، فإن الصمت الغربي يُعدُّ حقيقة واقعة، مؤدياً إلى النتيجة ذاتها تقريباً: إذ يسمح للحرب بالتفاقم والاشتداد والتوسع. إن نزاعاً داخلياً، كان يمكن حله عن طريق الضغط الخارجي الملائم، يُهدد الآن بزعزعة استقرار دولة هشة وضعيفة رأت فيها الولايات المتحدة ودول أخرى ميداناً هاماً في حربها ضد الجهاد الإسلامي.

لهذه السلبية عدة تفسيرات. أولها ندرة المعلومات والأخبار غير الكافية والمتناقضة أحياناً من جانب المتمردين والتي ساهمت في زيادة الإبهام بشأن حجم وتأثير الحرب. ونتيجة القيود التي فرضتها الحكومة، كان الوصول إلى صعدة والمناطق المحيطة صعباً أو مستحيلاً بالنسبة للدبلوماسيين والصحفيين والباحثين والمنظمات غير الحكومية، يمنية كانت أم أجنبية؛ ولهذا لم يكونوا قادرين على تقييم حجم الدمار أو أن يجروا مقابلات مع الضحايا.¹²⁸ وبالمثل، فإن

¹²⁷ يقول حسن زيد من حزب الحق: "لم يكن هناك دعم خارجي للحوثيين. لقد حصلت الحركة على تمويل داخلي طوال الوقت باستثناء الجولتين الثانية والثالثة، حين أرسل الزيدون في السعودية الأموال بموافقة من حكومة الرياض. لا يزال موقف الأخيرة ملتبساً، إذ إنها دعمت كلا الطرفين على التوالي، ليس لأسباب أيديولوجية صرفة، بل لأنها تريد الحرب وعدم الاستقرار في اليمن". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009. ادعى أحد شيوخ صعدة أن السعودية زودت المتمردين بالإمدادات الغذائية خلال الجولة الأولى من القتال: "يعود هذا إلى أن قبيلة عبد الله الرزامي، أحد أبرز القادة الحوثيين، تنتشر على الحدود وبذلك تكون قبيلة نصف يمنية ونصف سعودية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹²⁸ لم يلق الطلب الذي تقدمت به مجموعة الأزمات في كانون الثاني/يناير 2009 إلى وزارة الداخلية للحصول على إذن بالتوجه لصعدة أي جواب. ومما يثير القلق أكثر حقيقة أن مستشاراً لمجموعة الأزمات أجرى عملاً ميدانياً لإعداد هذا التقرير وعمل في اليمن منذ عام 2001 مُنع من دخول البلاد لدى وصوله إلى مطار صنعاء في نيسان/إبريل 2009. كما أن مسؤولي الأمن صادروا نسخة مسودة من التقرير ولم تستجب السلطات اليمنية للمطالبات العديدة بإعطاء تفسير للحادث.

والزيدية خارج اليمن، على الأخص في إيران.¹²¹ وعلى الرغم من عدم استبعاد وجود دور إيراني، فإن هذا الدور ليس بالأمر الواضح. مع قيام الثورة الإسلامية عام 1979، ألهمت الأيديولوجيا الإيرانية الثورية عدداً من المفكرين الزيديين؛ كذلك يتمتع حزب الله اللبناني وقادته بدعم واسع حتى خارج أوساط الزيديين الإحيائيين. علاوة على ذلك، فإن حصول تمرد شيعي على حدود المملكة العربية السعودية يُعدُّ أمراً جيداً من منظور طهران. ومع ذلك فإن الاختلافات الدينية الكبيرة بين الزيديين والجعفرين، إضافة إلى الانقسام العربي-الفارسي المستمر كلها حدثت من نفوذ إيران.

يدعي القادة الحوثيون وغيرهم وجود تدخل سعودي، مشددين بالأخص على تمويل مفترض للحكومة والقبائل المحلية خلال الجولة الرابعة في مسعى لتقويض الوساطة القطرية.¹²² يؤكد الكثيرون أيضاً تقديم الرياض الدعم المالي للجماعات القبلية خلال الجولة الخامسة، وبخاصة أولئك المرتبطين بتجمع قبائل حاشد.¹²³ تنفي المملكة أي مشاركة لها في النزاع،¹²⁴ في حين لم يقدم منتقدوها أي أدلة مقنعة.¹²⁵ على الرغم من ذلك، فإن وجود دور سعودي لن يكون بالمفاجأة الكبيرة بالنظر إلى الحدود المشتركة وتاريخ التدخل السعودي في السياسة اليمنية عن طريق قنوات دينية وقبلية واقتصادية إضافة إلى الدعم المباشر والرسمي لميزانية الدولة. في إشارة منه إلى هذا النمط القديم من التدخل، صاغ أحد المحللين الأجانب عبارة "ريال بوليتيك".¹²⁶

¹²¹ خلال الجولة الثانية من الحرب، أصدر المرجع الشيعي الأعلى آية الله علي السيستاني إعلاناً من النجف متهماً فيه الحكومة اليمنية بالتمييز العنصري. نوزيم، 2 أيار/مايو 2005؛ ومقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شيخ قبيلة من محافظة صعدة، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹²² وفقاً لوصف أحد أعضاء مجلس الشورى: "في حين بقي السعوديون حذرين للغاية حتى ذلك الوقت، محجمين عن التورط في قضية صعدة، فقد أغضبهم تدخل قطر. عندها بدؤوا بالانهمك الكبير في المسألة وشرعوا بإرضاء حاجاتنا المادية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹²³ اتهم أحد قادة المعارضة المملكة العربية السعودية بالسعي لـ "زعزعة استقرار البلاد". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹²⁴ نفى السفير السعودي في اليمن صراحة أي تورط لبلاد. "تنظر المملكة العربية السعودية إلى صراع صعدة بوصفه داخلياً ولهذا السبب فهي لا تتدخل". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع السفير علي حمدان، صنعاء، 13 كانون الثاني/يناير 2009.

¹²⁵ في أحسن الأحوال، تكون هذه الاتهامات مشفوعة بشائعات. على سبيل المثال، يؤكد عالم دين زيدي، مشيراً إلى دور سعودي مزعوم في الجولة الخامسة: "أخبرني بعض الأشخاص داخل وزارة الدفاع أن السعودية كانت تدفع ما يوازي 10 ملايين دولار أسبوعياً. ذهبت هذه الأموال إلى زعماء قبليين وأفراد في الجيش ووزارة الدفاع". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عالم دين زيدي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

¹²⁶ الريال هو العملة السعودية. غريغوري غوس، "العلاقات السعودية-اليمنية: البنية المحلية والتأثير الأجنبي" (نيويورك، 1990)، ص. 112.

على تمويل لإعادة الإعمار.¹³⁵ إن كل هذا يجعل من نقص الاهتمام العالمي في أوائل سنوات الحرب – حين كان لا يزال ممكناً إيقاف الصراع، كما يجادل البعض – أمراً يدعو لعظيم الأسف.

الاتصالات الضعيفة والافتقار إلى جدول أعمال واضح لدى المتمردين أعاق جمع المعلومات.

كذلك تكونت المواقف الغربية نتيجة لخطاب المتمردين المناهض للولايات المتحدة وإسرائيل، المقترن بمطالب مبهمّة وغير محددة، والذي أثار نفور تلك الحكومات التي لربما كادت تتعاطف مع معاناة المتمردين.¹²⁹ صوّر المسؤولون اليمنيون الصراع بمهارة كجزء من الحرب الواسعة على الإرهاب، مستفيدين من تلهف الولايات المتحدة وأوروبا في ما بعد الحادي عشر من سبتمبر لمقاتلة أعداء إسلاميين محتملين. وإذ تعرضت صنعاة للانتقاد في الغرب لميلها إلى استرضاء المسلحين الجهاديين بدلاً من مواجهتهم، فقد كان لديها سبب وافي للنزوع إلى قتال الجماعات الإرهابية حتى لو – أو ربما للسبب الآتي – كان "الإرهابيون الحوثيون" مجموعة معزولة ومظلومة، منفصلة عن أي شبكات مماثلة للقاعدة ومُمثلة لجماعة الزيديين الهاشميين الذين خسروا في ثورة عام 1962.¹³⁰ في الوقت نفسه، يُحتمل أن تكون الحكومات الغربية خشيت أن تُضعف الضغوطات حكومة تواجه بالفعل تحديات عديدة بينها تنظيم القاعدة واقتصاد متهالك.¹³¹

تدريجياً، اجتنب الصراع اهتماماً أكبر، ولكن غير كافٍ، ويعود ذلك أساساً لجهود وكالات الإغاثة الإنسانية.¹³² يعتقد صحفيون مستقلون ودبلوماسيون غربيون وعمال إغاثة دوليون أن الضغط الدولي، ولو جاء متأخراً، قد أسهم في وقف إطلاق نار تموز/يوليو 2008.¹³³ أشارت مطالبات الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي مطلع الشهر بتحسين حرية الوصول إلى مناطق القتال بالنسبة للمنظمات الدولية غير الحكومية ووكالات الأمم المتحدة إلى قلق وضغوط متزايدة على أطراف النزاع.¹³⁴ وبالمثل، ما إن طُبّق وقف إطلاق النار حتى أصبح لمجموعة المانحين نفوذ أكبر حين سعت الحكومة للحصول

¹²⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي غربي، صنعاة، كانون الثاني/يناير 2009.

¹³⁰ لودميلا دويوشيه، "الدولة، الإسلام السياسي والعنف: إعادة تشكيل السياسة اليمنية منذ 9\11"، من الكتاب الذي حررته إميلي بلوم ولايتيشا بوكيل ولوي مارتنيز، "الغز العنف الإسلامي" (لندن، 2007)، ص. 144.

¹³¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في المجتمع المدني وعضو لجنة وساطة في 2004، صنعاة، 8 كانون الثاني/يناير 2009.
¹³² تشمل الأمثلة توزيع رسالة "صعدة أبدت" الإخبارية من قبل برنامج الغذاء العالمي على جميع وكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية العاملة في اليمن؛ وبرامج اللجنة الدولية للصليب الأحمر في محافظة صعدة والتي بدأت مع الجولة الرابعة للحرب؛ وإحداث مجموعة استجابة للطوارئ في 2008 لتنسيق عمل المنظمات غير الحكومية المحلية والدولية؛ وعلى نحو أكثر عمومية، الانخراط المتزايد للمنظمات الإنسانية الدولية منذ عام 2007. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مدير وطني لمنظمة إنسانية غير حكومية، صنعاة، 13 كانون الثاني/يناير 2009. خلال الجولة الخامسة عام 2008، أرسلت منظمة هيومن رايتس ووتش بعثتين إلى اليمن لتقييم الوضع بعد وقف إطلاق النار في تموز/يوليو.

¹³³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب المؤتمر الشعبي العام، صنعاة، 20 كانون الثاني/يناير 2009.

¹³⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي من إحدى دول الاتحاد الأوروبي، صنعاة، 10 كانون الثاني/يناير 2009.

¹³⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول تنمية غربي، صنعاة، 6 كانون الثاني/يناير 2009.

الذي كان الوسطاء يستعدون فيه للاجتماع بحسين الحوثي، في محاولة منهم لإعاقه جهود الوساطة كما يزعم البعض.¹⁴⁰

شكلت الحكومة لجاناً سياسية مماثلة خلال جولات القتال التالية، لكل منها تشكيلة مختلفة، ولكنها جميعها لاقت نفس المصير. لقد واجهت العديد من التحديات، كانهدام وسائل الاتصال الهاتفية مع قيادة المتمردين بعد أن قامت قوى الأمن بقطع الخطوط.¹⁴¹ وقد ساهمت لجان محلية تضم عناصر قبلية ودينية في استكمال عمل اللجان السابقة، حيث نسقت جهودها على نحو فضفاض مع المسار الأكثر سياسية.¹⁴²

هدفت لجنة ثالثة ترأسها القاضي حمود الهتار إلى فتح حوار مع مسلحين معتقلين من جماعة الشباب المؤمن وإقناعهم بعدم وجود أساس ديني لحمل السلاح ضد الحكومة. وتمشياً مع سياسة الأخيرة، خلطت اللجنة بين المتمردين بقيادة الحوثي وجهادي القاعدة. لاقت اللجنة بعض الاستحسان على الصعيد المحلي والعالمى بوصفها تمثل أسلوباً جديداً في مكافحة الإرهاب.¹⁴³ ادعى الهتار النجاح، مقدراً أن نصف المشاركين اقتنعوا بإيقاف نشاطاتهم العنيفة،¹⁴⁴ على الرغم من عدم إمكانية التحقق من هذه الأرقام. غير أن الولايات المتحدة والعديد من المحللين أبدوا تشككهم قائلين أن عدداً من المسلحين المنخرطين في العملية استمروا في القتال، لاسيما أولئك الذين توجهوا للعراق.¹⁴⁵ تم الاستغناء عن المشروع في نيسان/إبريل 2007 بعد تعيين الهتار وزيراً للأوقاف وتغيير النظام لسياسته في مكافحة الإرهاب، إذ ارتأى استخدام القمع على نحو أشد.

إضافة إلى الوساطة، اتخذت الحكومة خطوات أخرى لتهدئة الوضع. في أيلول/سبتمبر 2005، بمناسبة الذكرى الثالثة والأربعين لقيام الثورة، أعلن الرئيس صالح عن دفع تعويضات لعائلة حميد الدين، التي حكم ثلاثة من أئمتها الزيديين (يحيى وأحمد ومحمد البدر) اليمن الشمالي حتى قيام ثورة عام 1962. في عام 2006، عُيّن يحيى الشامي، وهو هاشمي،

V. مساعي الوساطة

اتخذت الجهود المبذولة لإنهاء الحرب العديد من الأشكال. أعطت الحكومة الضوء الأخضر للعديد من لجان الوساطة المشكلة من زعماء قبليين ودينيين وسياسيين؛ تدخلت ليبيا وقطر على نحو خاص، كما شكلت الحكومة جماعات لمعاينة الدمار وتقييم التكاليف وبدء إعادة الإعمار، حيث فشلت جميعها. من المهم معرفة أسباب ذلك.

أ. لجان الوساطة القبلية والسياسية

يُحسب للحكومة سعيها للتوصل إلى حل يمضي أصيل عن طريق المفاوضات منذ بداية الصراع.¹³⁶ فقد عمدت، قبل وبعد وخلال كل جولة قتال، إلى إنشاء لجان وساطة محلية، مؤسسة على تقاليد البلاد في التحاور بين الأفراد والجماعات المتنازعة.¹³⁷ في نهاية المطاف، أخفقت جهود هذه اللجان نتيجة غياب إرادة سياسية كافية لدى الطرفين.

انطلقت جهود الوساطة في أوائل عام 2004، حين ازدادت التوترات بين حسين الحوثي والحكومة. تُعيد هذه الجهود المحلية غير الرسمية إلى الأذهان الوسائل التقليدية لحل النزاعات بين القبائل والتي قام بها الهاشميون الذين كانوا يُعتبرون محايدين لكونهم غرباء – إلا أن الهاشميين هذه المرة كانوا هم أنفسهم طرفاً في الصراع.¹³⁸ في حزيران/يونيو 2004، شكلت الحكومة لجنة تضم خليطاً من الشخصيات المحلية والوطنية، العديد منهم مقرب من الحوثي.¹³⁹ بالتوازي، قامت مبادرة مجتمع مدني صادق عليها الرئيس بجمع شخصيات بارزة من الأحزاب الحاكمة والمعارضة. وبحسب قول المشاركين، تعثرت المبادرات بسبب غياب التنسيق والإجماع بين الحكومة والجيش. لم يكن الوصول الآمن إلى صعدة متاحاً، ومن ثم عمد الجيش لقصف مواقع المتمردين في ذات الوقت

¹⁴⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في المجتمع المدني وعضو في لجنة وساطة عام 2004، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁴¹ نيوز يمن، 15 شباط/فبراير 2007.

¹⁴² خلال الجولة الخامسة، حقق شيوخ قبائل صعدة بعض النجاح، إذ تفيد التقارير أنهم أقنعوا الرئيس بعدم تأليف "جيش شعبي" وأن التوصل لوقف إطلاق نار بات ممكناً. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي منتسب إلى الحزب الاشتراكي اليمني، 17 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁴³ انظر لوران بونفوا، "بين الضغوط الخارجية والتوترات الداخلية، توازنٌ غير مستقر في اليمن"، "لوموند دبلوماسيك"، تشرين الأول/أكتوبر 2006.

¹⁴⁴ "يمن أوبزرفر" (أسبوعية تصدر في صنعاء)، 4 حزيران/يونيو 2008.

¹⁴⁵ كريس بوشيك، شزادي بيغ وجون بورغان، "بدء النقاش الجهادي: لجنة اليمن للحوار"، في العمل الذي حرره تور بيورغو وجون هورغان، "التخلي عن الإرهاب: تحرر فردي وجماعي" (نيويورك، 2009).

¹⁴⁶ "الثورة"، 26 أيلول/سبتمبر 2005.

¹³⁶ على حد قول مسؤول رفيع في الحكومة: "بتفضيله المصالحة أراد الرئيس إظهار أنه ما من حل عسكري للنزاع". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 7 كانون الثاني/يناير 2009.

¹³⁷ من الصعب أن نتحرى على وجه الدقة عدد لجان الوساطة الناشطة منذ عام 2004، وهذا مظهر من مظاهر لامركزيتها. تلقى البعض تفويضاً من الرئيس مباشرة، في حين اتخذ آخرون المبادرة من تلقاء أنفسهم. يتراوح العدد الإجمالي ما بين خمس (مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، رئيس جهاز الأمن القومي ومدير مكتب رئاسة الجمهورية، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009) و"سبع أو ثمان" لجان (مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العليمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009).

¹³⁸ ستيفن كاتون، "حوليات يمنية: أنثروبولوجيا الحرب والوساطة" (نيويورك، 2005).

¹³⁹ ضم هؤلاء أخاه يحيى، عضو البرلمان، ومحمد المنصور، عالم الدين الزيدي البارز والعضو في حزب الحق، وعبد الكريم جذبان، عضو البرلمان عن الحزب الحاكم ومؤسس جماعة "الشباب المؤمن". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شيخ قبيلة من محافظة صعدة، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

بمن فيهم عبد الكريم الخيواني (عامي 2005 و2008)، ويحیی الديلمي (2005) ومحمد لقمان (2005) ومحمد مفتاح (2005). وقد تعرض هؤلاء إما للاحتجاز دون محاكمة أو نالوا أحكاماً طويلة بالسجن قضت بها محكمة جنائية خاصة في إجراءات قضائية تعتبرها منظمة العفو الدولية غير عادلة.¹⁵² ويقال إن أعمالاً قمعية مزعومة قامت بها قوات الأمن في صعدة لعبت هي الأخرى دوراً سلبياً.¹⁵³ إن اعتقال وسجن عدد من الوسطاء البارزين كعبد الله حسين المؤيد، عالم الدين من صعدة، وصالح الوجدان، شيخ قبيلة من صعدة أيضاً، عزز من صحة الرأي القائل إن الجيش، إن لم تكن الحكومة برمتها، مصمم على إعاقة جهود المصالحة.¹⁵⁴

ب. وساطة قطر

شاركت العديد من الحكومات الإقليمية في الجهود الرامية لإنهاء القتال، استجابة لطلب الحكومة اليمنية في بعض الأحيان. تفيد التقارير أن الحكومة طلبت مساعدة ليبيا خلال الجولة الثالثة من القتال، على الرغم من أن العلاقات ساءت فيما بعد حين اتهمت الحكومة طرابلس بدعم المتمردين.¹⁵⁵ ويقال أن المملكة العربية السعودية تدخلت بحذر لتسوية النزاعات بين عدة قبائل متحالفة معها كانت تتقاتل فيما بينها في سياق حرب صعدة.¹⁵⁶

جاءت أهم مبادرات الوساطة من قطر كجزء من استراتيجيتها الأوسع لحل النزاعات والتي شملت لبنان وفلسطين والسودان.¹⁵⁷ يظهر أن هذه الجهود بدأت خلال زيارة في أيار/مايو 2007 قام بها الأمير حمد بن خليفة آل ثاني إلى اليمن. بحسب التقارير، أرسل الأمير فريقاً من وزارة الخارجية إلى صعدة في صحبة الوسيط اليمني الذي عينته الحكومة بغية الاجتماع بقيادة التمرد. كما سافر يحيى الحوثي إلى قطر لينقل مطالب المتمردين. نتج عن ذلك إعلان مشترك لوقف إطلاق النار بتاريخ 16 حزيران/يونيو 2007 مبني على قائمة من الأهداف العامة التي بقيت سرية إلى أن نشرها المتمردون بعد حوالي السنة.¹⁵⁸ تشمل

محافظاً لصعدة خلفاً ليحيى العمري¹⁴⁷ الأكثر تشدداً، كما صدر عفو عن عدد من السجناء وأطلق سراحهم، كل ذلك في سبيل دعم جهود الوساطة.

هنالك العديد من التفسيرات المنطقية بشأن فشل المحاولات غير العسكرية. ووفقاً لقول البعض، فقد كان المشاركون في اللجان مُسَيَّسين على نحو مكشوف للغاية، كما أنهم كانوا يفتقرون للجذور المحلية، ولديهم أفكار مسبقة عن الأطراف الفاعلة ويفتقرون للمعرفة الكافية عن منطقة صعدة.¹⁴⁸ يمكن القول إن أخطر عائق كان أن كلاً من جهود الوساطة والخطوات المعلنة من قبل الحكومة لتهدئة الوضع تم تقويضها عن طريق التدابير القمعية المصاحبة أو، بكل بساطة، لم يتم تطبيقها أصلاً.¹⁴⁹ كان هذا في جزء منه نتيجة للمقاربات المتنافسة بين القيادة السياسية وقيادة الجيش. ووفقاً لما يقوله عالم دين زيدي شارك في جهود وساطة غير رسمية: "حين دعا الرئيس للوساطة لم يبدي الجيش التعاون دائماً. كان يمكن لجهود الوساطة أن تنجح لو كان هناك إجماع بين السياسيين والجيش. ولكن عوضاً عن ذلك فقد خربت الخلافات هذه الجهود".¹⁵⁰ لقد ساند العديد من المشاركين والمراقبين المستقلين هذا الادعاء. يُقدم أحد الوسطاء مثلاً عن الأداء المتعارض لأطراف الحكومة:

طلب منا الرئيس الذهاب إلى صعدة. كنا قد رتبنا لقاء مع حسين الحوثي لمناقشة سبل حل الصراع وكانت هناك مروحية جاهزة للانطلاق بنا. بينما كنا نستعد للمغادرة شرعت قوات الجيش القريبة من موقعنا بقصف مواقع الحوثي، مما اضطرنا لإلغاء الاجتماع. أعتقد أن هدفهم الحقيقي كان إفشال محاولات الوساطة لإظهار أن الرد الوحيد الفعال على الحوثيين هو الرد العسكري.¹⁵¹

أعيقت جهود اللجان على نحو أكبر نتيجة اعتقال عدد من المفكرين والصحفيين وأعضاء لجان وساطة سابقين من الزيديين،

¹⁴⁷ استُبدل يحيى الشامي في نيسان/إبريل 2007 على خلفية تساهله الكبير مع المتمردين، كما يزعم البعض. ويُقال أن اثنين من أبنائه دخلوا السجن لفترة قصيرة لعلاقتهم بالتمرد خلال الجولة الخامسة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع حسن زيد، أمين عام حزب الحق، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁴⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مفكر زيدي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009. يقول فايز العوجري، شيخ قبيلة من صعدة ونائب في البرلمان من الحزب الحاكم: "إن مشاركة أفراد من جميع مناطق البلاد في لجان الوساطة السياسية وسع الحرب وجعل منها مسألة أكبر من ذي قبل. كان يمكن للأمر أن تُحل محلياً. لقد وظفت المعارضة هذه الحرب للضغط على الحزب الحاكم". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁴⁹ على سبيل المثال، يظهر أن 70 فقط من أصل 500 سجين أُخلي سبيلهم في إعلان أيلول/سبتمبر 2007 خرجوا من السجن فعلاً. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط حقوق إنسان، 5 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁵⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مفكر زيدي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁵¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عضو لجنة وساطة من حزب معارض، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁵² "اليمن"، منظمة العفو الدولية، تقرير لعام 2006، نُشر في أيار/مايو 2007.

¹⁵³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عالم دين زيدي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁵⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط حقوق إنسان، صنعاء، 20 كانون الثاني/يناير 2009. "حالات اختفاء واعتقال عشوائي في الصراع المسلح مع المتمردين الحوثيين في اليمن"، تقرير هيومن رايتس ووتش، تشرين الأول/أكتوبر 2008.

¹⁵⁵ في أيار/مايو 2007، استدعى اليمن سفيره إلى إيران وليبيا للتشاور. "يمن تايمز"، 14 أيار/مايو 2007؛ بيد أنه لا يزال يتعين عليه تقديم أدلة على تورط ليبيا. ويظهر أن سبب الغضب كان وجود يحيى الحوثي في ليبيا على فترات متقطعة، حيث رفضت طرابلس تسليمه. "المؤتمرننت"، 16 شباط/فبراير 2007.

¹⁵⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شيخ قبيلة من صعدة، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁵⁷ "نيويورك تايمز"، 9 تموز/يوليو 2008.

¹⁵⁸ كشف المتمردون عن نص الاتفاق في أواخر آذار/مارس 2008، حين هددت التوترات في منطقة الحرب بتقويضه. "الشارح"، 22 آذار/مارس 2008.

مطلوبة.¹⁶⁴ في آذار/مارس 2009 أكد الرئيس صالح فشل وساطة قطر، ملمحاً إلى أن الدوحة، بغير قصد، ساعدت المتمردين على الاعتقاد أنهم "مساوون للدولة" حيث كانوا يتفاوضون مع الحكومة مباشرة.¹⁶⁵

لقد فشل المجهود القطري نتيجة عدة أسباب، أولها غياب آلية متابعة فعالة لمراقبة التنفيذ والفصل في المنازعات. وبشكل من الأشكال، كانت المبادرة في جوهرها شبيهة برمي المال على مشكلة ما أملاً في أن تختفي. التقى أعضاء يمينيون من لجان التطبيق مع قادة المتمردين ولكنهم لم يحققوا تقدماً يذكر لأنهم كانوا يعملون في الفراغ؛ لم يكن هناك اتصالات منتظمة بين الأطراف الموقعة والمسؤولين القطريين، كما لم تكن هناك آلية رسمية لمعالجة الخلافات.¹⁶⁶

تزايدت الخلافات حول درجة تطبيق الاتفاق من قبل الأطراف التي تبادلت اللوم بشأن إخفاقه.¹⁶⁷ ادعت الحكومة أن قائد المتمردين عبد الله الرزاعي "رفض النزول من الجبال كما تنص اتفاقية السلام"،¹⁶⁸ في حين جادل المتمررون قائلين إن "الحكومة اليمينية لم تحترم وعودها"¹⁶⁹ لتطبيع الوضع في صعدة والتوقف عن مضايقة أبنائها. كما أتى المتمررون على ذكر اعتقال قوات الأمن وسيطاً يمثل الحوثيين، واتهموا وسائل الإعلام القريبة من الجيش بتنظيم حملة ضد اتفاق الدوحة.¹⁷⁰

شكل التنافس بين قطر والمملكة العربية السعودية عاملاً إضافياً زاد في تعقيد الموقف. إذ إن الدوحة صاغت سياسة خارجية مستقلة منذ تولي الأمير حمد بن خليفة آل ثاني مقاليد السلطة عام 1995، وقامت بدور الوساطة في النزاعات الإقليمية، مقيمة شراكات اقتصادية مع كل من إيران وإسرائيل ومنقذة علناً السياسة السعودية خلال لقاءات الجامعة العربية ومجلس التعاون الخليجي. وبذلك

هذه، في جملة أمور، موافقة المتمردين على التخلي عن مواقعهم وأسلحتهم الثقيلة والتزاماً من الحكومة بإعلان عفو عام وإطلاق مشاريع إعادة إعمار مدعومة قطرياً في صعدة. كما نص على أن تقوم الحكومة بتشكيل لجنة أخرى تضم يمينيين من الجانبين، إضافة إلى قطريين، كي يسعوا للتوصل إلى اتفاق سلام.

يوم 1 شباط/فبراير 2008 التقى الطرفان في الدوحة لتوقيع اتفاق سلام.¹⁵⁹ على الرغم من أن العنف لم يتوقف قط، حتى بعد اتفاق وقف إطلاق النار،¹⁶⁰ فقد زادت التوقعات، خاصة فيما يتعلق بالتمويل القطري، واتخذ الطرفان خطوات ملموسة باتجاه تطبيق الاتفاق في الفترة اللاحقة.¹⁶¹ في صلب الاتفاق كان تعهد قطر بتمويل إعادة الإعمار وإطلاق مشاريع إنمائية رئيسية في صعدة بما قيمته 300-500 مليون دولار، على الرغم من أن الأرقام لم تُعلن أبداً.¹⁶²

لم يدم التفاوض طويلاً، إذ سرعان ما صار الاتفاق باطلاً نتيجة تجدد القتال العنيف، وفي حين استمر المتمررون في المطالبة بتطبيقه حتى بعد أن تخلت عنه قطر،¹⁶³ ادعت الحكومة أنها أوفت بالتزاماتها حين لم يلتزم المتمررون، وأن الوساطة القطرية لم تعد

¹⁵⁹ مثل المتمردين كل من يحيى الحوثي والناطق باسمهم صالح هبرة؛ أرسلت الحكومة عبد الكريم الإرياني، رئيس الوزراء السابق والمستشار السياسي للرئيس صالح، إضافة إلى اللواء علي محسن. وقع حمد بن جاسم آل ثاني رئيس وزراء قطر الاتفاق نيابة عن حكومته. تضمنت شروط الاتفاق وقفاً نافذاً لجميع العمليات الحربية، وإخلاء سبيل كل السجناء في غضون شهر ابتداء من شباط/فبراير 2008، والنفي إلى قطر لكل من عبد الملك الحوثي وعبد الكريم الحوثي (أحد أخوة حسين وقائد للتمرد) وعبد الله الرزاعي (الذي رفض مغادرة اليمن زاعماً وجود توترات على الأرض) إضافة إلى إنشاء لجان لإعادة الإعمار ودفع التعويضات. "الشارع"، 22 آذار/مارس 2008.

¹⁶⁰ يوم 15 تموز/يوليو، تعرض موكب يضم ثلاثة وسطاء قطريين وأعضاء برلمان ومجلس شورى يمينيين لإطلاق نيران المتمردين قرب مدينة الطلح في ناحية سحار. أدان عبد الملك الحوثي الهجوم ونفى أي تورط فيه؛ ادعت الحكومة أن مناصري الحوثيين هم الذين قاموا بالتخطيط وتنفيذ الاعتداء. نيوز يمن، 16 تموز/يوليو 2007. قبل أربعة أيام من توقيع اتفاق الدوحة، اتهم عبد الملك الحوثي قوات الحكومة بقصف مواقعه في ناحية حيدان، الأمر الذي هدد اتفاق السلام. "النداء"، 30 كانون الثاني/يناير 2008.

¹⁶¹ أعلن عبد الملك الحوثي أن المتمردين سلموا ما يربو على 72 سجيناً (ضباط وأفراد قاتلوا إلى جانب القوات المسلحة). "الشارع"، 14 تموز/يوليو 2007. أصدرت الحكومة تقييماً لحجم الخسائر في الممتلكات الفردية والعامية في ثلاث نواحي بمحافظة صعدة. ترأس محافظ صعدة مطهر المصري لجنة إعادة الإعمار. "أيرين نيوز"، 11 تشرين الثاني/نوفمبر 2007.

¹⁶² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عيروس النقيب، نائب في البرلمان من الحزب الاشتراكي اليمني، صنعاء، 21 كانون الثاني/يناير 2009. كانت المساهمة جزءاً من جهد أوسع تقوم به مؤسسة قطر للتنمية التي أنشئت حديثاً، والتي وعدت حينها بتعهد مشاريع تنمية وبناء البنية التحتية خارج محافظة صعدة أيضاً. "26 سبتمبر"، 21 حزيران/يونيو 2007.

¹⁶³ نيوز يمن، 19 تموز/يوليو 2008.

¹⁶⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مفكر زيدي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁶⁵ "الحياة"، 28 آذار/مارس 2009.

¹⁶⁶ يقول عثمان المجلي، النائب البرلماني عن الحزب الحاكم: "حاولت قطر أن تتوسط، ولكنها لم تكن مطلعة على ما يجري في صعدة بالفعل". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، 12 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁶⁷ "الشارع"، 10 أيار/مايو 2008.

¹⁶⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول حكومي رفيع، صنعاء، 7 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁶⁹ مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع يحيى الحوثي، برلين، 3 شباط/فبراير 2009. ادعى مناصرو الحكومة المحليون أن الأموال القطرية المدفوعة للقبائل المحلية والجماعات المسلحة ترقى إلى تمويل غير مباشر للمتمردين، وهو أمر يسيء إلى دور الدوحة في رأيهم. "دفعت قطر مبالغ كبيرة من المال على شكل هدايا للمتمردين. لم يكن الناس سعداء بذلك، وقد أدى ذلك إلى انهيار اتفاق الدوحة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع فايز العوجري، نائب في البرلمان من صعدة عن حزب المؤتمر الشعبي العام، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁷⁰ "يمن تايمز"، 24 نيسان/إبريل 2008. للاطلاع على الانتقادات الموجهة للوساطة القطرية، انظر "الشموع" (صحيفة أسبوعية مستقلة تصدر في صنعاء)، 20 و 27 نيسان/إبريل 2008.

أفادت التقارير الواردة أواخر كانون الأول/ديسمبر أن اللجنتين أكملتا معاينة 80 بالمئة من المناطق المتضررة؛ حيث قدرتا أن 7180 منزلاً و1412 مزرعة و267 مسجداً و94 مدرسة، وثمانية مراكز طبية وأربعة مراكز شرطة وثلاثة مبان قضائية وثلاثة مرافق حكومية ومركزين دينيين قد دُمّرت نتيجة أعمال القتال والقصف الجوي.¹⁷⁸ بحلول منتصف آذار/مارس 2009، زعمت الحكومة إعادة بناء 960 منزلاً خاصاً خلال المرحلة الأولى من إعادة الإعمار (مُرَكَّزة على نواحي سحار ورازح)¹⁷⁹ واستكمال معاينة الدمار في حرف سفیان وبني حُشيش.¹⁸⁰

في ذات الفترة، أطلقت المنظمات المحلية والإنسانية حملة مساعدات إنسانية في صعدة بعيد انتهاء الجولة الخامسة مباشرة. اضطلعت وكالات الأمم المتحدة ومنظمات دولية غير حكومية بعملية تقييم سريعة مشتركة للاحتياجات بين شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر 2008، مُغْطية مجموعة واسعة من القطاعات (بما في ذلك الصرف الصحي والصحة والتعليم والحماية المدنية)، وخصصت ميزانية تبلغ 4.6 مليون دولار لعدة وكالات مُنْفَذة للتعامل مع حالات الطوارئ بين شهري تشرين الأول/أكتوبر وكانون الأول/ديسمبر 2008.¹⁸¹ كما تولت جمعية الهلال الأحمر القطري ومؤسسة الصالح المُحدثة رانسياً توزيع المؤن على اللاجئين، في حين تابعت منظمات أكسفام، وأطباء بلا حدود، وأطباء العالم، واللجنة الدولية للصليب الأحمر، والإغاثة الإسلامية برامجها الخاصة للإغاثة ضمن مناطق لا تزال تحت سيطرة المتمردين.¹⁸² شجعت الحكومة النازحين على العودة لديارهم، مقدمة الحوافز النقدية وأجور المواصلات والغذاء وغيرها من السلع الأساسية للعائلات الراغبة بالعودة،¹⁸³ بيد أن النتائج كانت متفاوتة.¹⁸⁴

المتبردين الذي استخدموه لإعادة التسلح. "أما هذه المرة، فسيحصل الناس على نسبة 25% فقط من المبلغ المطلوب لإعادة بناء منازلهم. ولن يتسلموا بقية المبلغ حتى يبدؤوا بإعادة البناء". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع فايز العوجري، نائب في البرلمان من محافظة صعدة عن حزب المؤتمر الشعبي العام، صنعاء، 12 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁷⁸ سبأ نيوز، 23 كانون الأول/ديسمبر 2008.

¹⁷⁹ سبأ نيوز، 15 آذار/مارس 2009.

¹⁸⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد ثابت، مدير تنفيذي، صندوق إعادة إعمار صعدة، صنعاء، 21 آذار/مارس 2009.

¹⁸¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع موظف تنمية دولية، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁸² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مدير وطني، منظمة إنسانية دولية غير حكومية، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁸³ برنامج الغذاء العالمي، تقرير نصف شهري حول عمليات الطوارئ في صعدة، 30 آب/أغسطس 2008.

¹⁸⁴ تردد الكثير من النازحين بالعودة نتيجة زرع الألغام في مناطقهم أو لخشيتهم انتقام المتمردين نتيجة دعم هؤلاء المواطنين المزعوم للحكومة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، خبير تنمية دولي، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009؛ شيخ قبيلة من محافظة صعدة، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009. استمرت مسألة النازحين داخلياً في إرباك الحكومة ووكالات الإغاثة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في منظمة إنسانية دولية غير حكومية، باريس، 28 كانون الثاني/يناير 2009.

أغضبت المملكة العربية السعودية، فتزايد التوتر بسرعة بين الإمارة الصغيرة والمملكة الكبيرة.¹⁷¹ كما أن إحداهن قناة الجزيرة الإخبارية عام 1997 وانتقاداتها المتكررة للأسرة السعودية الحاكمة أثبت كونه عاملاً رئيساً في إثارة التوتر.¹⁷² ويظهر أن الوساطة القطرية في صعدة - المحايدة للمملكة العربية السعودية - دفع بالرياض إلى إغداق الأموال على الجيش اليمني والقبائل المتحالفة معه. في الوقت نفسه، صور الإعلام السعودي التدخل القطري على أنه موجه من إيران، مشيرة إلى أن توقيته يعكس محاولة مشتركة لإنقاذ المتمردين من هزيمة وشيكة.¹⁷³

ج. لجان إعادة الإعمار

وفقاً لكلمات أحد أعضاء البرلمان: "بدون التعويضات وإعادة الإعمار، لن تتوقف الحرب أبداً".¹⁷⁴ تبعاً لذلك، بعد أقل من أسبوع من "إنهائه" الحرب يوم 17 تموز/يوليو 2008، أحدث الرئيس صالح لجنة صعدة للسلام وإعادة الإعمار. كما شكل بالتوازي مع ذلك لجنة محلية تضم شخصيات بارزة من صعدة، مثل فارس مناع (شيخ قبيلة ورجل أعمال بارز وشقيق حسن مناع، محافظ صعدة) وأعضاء مجالس محلية منتخبة. إن وجود أشخاص في كلتا اللجنتين يعتبرون قريبيين من المتمردين، كالشيخ علي ناصر القرش، هدأ من إثارة قادة الحوثيين.¹⁷⁵ بدا وكأن اللجنتين تعملان على نحو تعاوني، حيث حُوِّلنا الحصول على 55 مليون دولار من صندوق خاص يشرف عليه رئيس الوزراء - هو مبلغ أقل بكثير مما كان متوقفاً أو مطلوباً، ومع ذلك فهو يُعدُّ بداية.¹⁷⁶ كان هدفها يتمثل بمعاينة الدمار والبدء بإعادة الإعمار وتوزيع التعويضات في المناطق المتضررة من الحرب.¹⁷⁷ كما كانت مُكفَّفة بحل النزاعات الناشئة بين مختلف الأطراف.

¹⁷¹ انظر جون بيترسون، "قطر والعالم: ترويج لدولة صغيرة"، *Middle East Journal*، الجزء 60، رقم 4 (2006).

¹⁷² انظر مأمون فندي، "حرب كلامية (لا) حضارية: الإعلام والسياسة في العالم العربي" (وستانفورد، 2007)؛ و "نيويورك تايمز"، 4 كانون الثاني/يناير 2008.

¹⁷³ "عكاظ" (صحيفة سعودية يومية)، 23 آب/أغسطس 2007.

¹⁷⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عيروس النقيب، نائب في البرلمان عن الحزب الاشتراكي اليمني، صنعاء، 21 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁷⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع حسن زيد، أمين عام حزب الحق، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁷⁶ يقول نبيل الشيبان، المسؤول في وزارة التخطيط: "كمطلب أول، سيحتاج صندوق إعادة الإعمار إلى 190 مليون دولار للحاجات الطارئة. ساهمت الحكومة بـ 55 مليون دولار. سيتعين على مجموعة المانحين تأمين المبلغ الباقي". "أبرين نيوز"، 18 أيلول/سبتمبر 2008. كما استشرفت وزارة التخطيط أن الخطة ستكتمل عن طريق القيام بجهود إنمائية خاصة في صعدة على مدى أربع سنوات (2009-2012)، ما سيكلف 500 مليون دولار إضافية. "النداء"، تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

¹⁷⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رشاد العلمي، نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن، صنعاء، 11 كانون الثاني/يناير 2009. إن عمل اللجنتين وإحداث الصندوق كان يُراد بها تفادي تجربة سابقة في إعادة الإعمار. في تشرين الثاني/نوفمبر 2007، قامت إحدى اللجان بمعاينة الدمار في تسع من نواحي صعدة الخمس عشرة. وعلى حد قول رشاد العلمي، انتهى المطاف بالقسم الأكبر من المال في أيدي

للمصالحة عمل اللجان ويتخذون خطوات لتقويضه.¹⁹⁰ ويُرجَّح أن يكونوا وراء الاستقالة القسرية في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر لعبد القادر هلال، وزير الإدارة المحلية ورئيس اللجنة الوطنية لإعادة الإعمار. اتهم مسؤولو الأمن هلال بالتساهل المفرط مع المتمردين.¹⁹¹ وبالنسبة للعديد من المراقبين المستقلين، فإن هذه علامة أخرى على الانقسام داخل النظام وتردده في إنهاء الحرب.¹⁹² ومنذ أن تولى عبد العزيز الذهب رئاسة لجنة إعادة الإعمار، فقدت هذه الكثير من نشاطها والسعة التي اكتسبتها سابقاً.

وبالمثل، أظهرت القيادة الحوثية تناقضاً تجاه لجان إعادة الإعمار. وعلى الرغم من أن المنظمات الدولية غير الحكومية ووكالات الأمم المتحدة استطاعت تنفيذ برامجها في المناطق المتضررة من الحرب دون صعوبات ظاهرة، فإن حرية الوصول بالنسبة للصندوق الوطني وأعضاء اللجان كانت أقل سلاسة.¹⁹³ اتهم يحيى الحوثي كلاً من الحكومة ولجان إعادة الإعمار المحلية بالكذب بشأن أهدافها وكذلك بالتجسس على الحوثيين والمتعاطفين معهم. وأضاف فوق ذلك: "الحكومة تستغل اللجان لإقناع الأجانب أنها تتخذ خطوات إيجابية"،¹⁹⁴ وقام آخرون بترديد نفس الكلام.¹⁹⁵ نتيجة لذلك، كما يزعم مسؤولو الإغاثة، لم يتسنى للصندوق الإغاثة تقييم حجم الضرر في المناطق التي يسيطر عليها الحوثيون، أي تلك التي عانت على نحو أكبر من القصف والقتال.¹⁹⁶

على الرغم من استمرار جهود إعادة البناء بخطى حثيثة،¹⁸⁵ حسب الرواية الرسمية، فإنها تواجه تحديات خطيرة قد تُعرض للخطر الجهود المبذولة لتفادي جولة أخرى من الحرب. لقد أضحى التمويل قضية بعد الجولة الخامسة مباشرة في سياق الإنهيار الاقتصادي العالمي وتراجع أسعار النفط، مما دفع بالحكومة إلى مراجعة ميزانيتها لعام 2009 التي تمت الموافقة عليها بالفعل.¹⁸⁶ ورداً على ذلك، ناشدت صنعاء المجتمع الدولي تقديم الدعم المالي. يقول مسؤول حكومي رفيع المستوى: "ليس هناك حل خارجي للصراع، ويتعين على لجان إعادة الإعمار معالجة المظالم الرئيسية. غير أن الحكومة في حاجة للموارد كي تقي بالتزاماتها".¹⁸⁷ على الرغم من اجتماع المسؤولين بالحكومات الغربية في الأسابيع التي أعقبت النهاية المعلنة للقتال، فقد أبدت مجموعة المانحين حذراً. ووفقاً لكلمات دبلوماسي من أحد البلدان المانحة الهامة:

هنالك توافق في الآراء في المجتمع الدولي بضرورة انتظار وجود ضمانات قبل الشروع في مشاريع التنمية في محافظة صعدة. لن يستثمر أحد في تلك المنطقة ما لم يكن هناك ضمان بأن الحرب لن تُستأنف. إن هذه وسيلة للضغط على الحكومة والحصول على معلومات عن عملية إعادة البناء والمصالحة.¹⁸⁸

وأوضح دبلوماسي آخر أن الدول الغربية لن تكون مستعدة لتوفير دعم مادي للصندوق تسيطر عليه الحكومة هدفه إصلاح ما دمرته قوات تلك الحكومة ذاتها، ويُحتمل أن تُدمره ثانية إن اندلعت جولة أخرى من القتال، مالم تستقر الظروف على الأرض.¹⁸⁹

إن استمرار عدم الاستقرار في المناطق المتأثرة بالحرب يُعدّ عاملاً آخر يعيق جهود إعادة الإعمار. فمنذ شهر تموز/يوليو 2008، لا تزال محافظة صعدة غير مستقرة، في المقام الأول نتيجة المناوشات المستمرة بين الجماعات القبلية المؤيدة لكل من الحوثيين والحكومة. وعلى وجه الخصوص، تتهم الأخيرة اللجان بالانحياز، وانتقاماً، يقوم أفراد من القبائل المتضررة بسد الطرق ومهاجمة القبائل الأخرى المعادية. ينتقد متشددو النظام الرافضون

¹⁹⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نبيل الصوفي، صحفي مستقل، رئيس تحرير مجلة "أبواب" الشهرية، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁹¹ "الحياة"، 16 تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

¹⁹² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نبيل الصوفي، صحفي مستقل، رئيس تحرير مجلة "أبواب" الشهرية، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁹³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في منظمة إنسانية دولية غير حكومية، باريس، 28 كانون الثاني/يناير 2008.

¹⁹⁴ مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع يحيى الحوثي، برلين، 3 شباط/فبراير 2009.

¹⁹⁵ تؤكد إحدى الشخصيات المعارضة: "وافقت الحكومة على وجود أفراد متعاطفين مع الحوثيين في لجان إعادة الإعمار فقط لأنها أرادت أن يؤمن الحوثيون بوجود النية الصادقة لديها لإنهاء الحرب، في حين أن الحال ليست كذلك". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 9 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁹⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، ممثل وطني لإحدى المنظمات الإنسانية الدولية غير الحكومية، صنعاء، 13 كانون الثاني/يناير 2009. ناقض المدير التنفيذي للصندوق إعادة الإعمار الادعاء بحرمان مسؤولي الصندوق من الوصول إلى المناطق التي يسيطر عليها المتمردون بقوله: "نحن نعمل مع الجميع. لا يهمنا إن كانوا حوثيين أو إن كانوا مع الحكومة. ليس للصندوق دور سياسي. نحن نعامل جميع المواطنين اليمنيين على قدم المساواة. إننا نقوم بتقييم فني فحسب ومن ثم نقدم شيكات للناس الذين دُمرت ممتلكاتهم ليشتروا ما يحتاجون إليه كي يعيدوا بناء منازلهم أو مزارعهم. بصراحة القول، ليس هناك حظر على جهودنا لإعادة الإعمار من قبل الحوثيين. نحن نعمل أينما شئنا. وإذا كان يحيى الحوثي الذي يعيش في الخارج ينتقدنا ويتهمنا، فذلك لأنه لا يعرف ما نقوم به على وجه الدقة وكم منزلاً أعيد بناؤها وحجم التقدم

¹⁸⁵ "26 سبتمبر"، 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

¹⁸⁶ خلال الأشهر الستة التي أعقبت وقف إطلاق النار بتاريخ 17 تموز/يوليو 2008، تراجعت أسعار النفط على نحو كبير. كانت الحكومة قد أقرت موازنة عام 2009 على أساس سعر 93 دولار للبرميل الواحد؛ بين كانون الثاني/يناير وأيار/مايو 2009، بقي سعر برميل النفط في حدود 50 دولاراً. رداً على ذلك، أعلنت الحكومة عزمها تخفيض الإنفاق إلى النصف. تمثل عائدات النفط نحو 70 من الدخل الإجمالي للحكومة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي غربي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁸⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 7 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁸⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي غربي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

¹⁸⁹ المصدر السابق نفسه.

ذلك، ينبغي تعزيز الجهود التي اضطلعت بها الدولة في الستينيات لاستيعاب الزيديين والهاشميين في النظام السياسي على نحو أكثر منهجية. كما ينبغي عليها عدم تشجيع وسائل الإعلام على تأجيج مشاعر التحامل الاجتماعي والديني. وأخيراً، يتعين عليها اتخاذ خطوات لضمان تمثيل الهاشميين والإحيائيين الزيديين في الأوساط العليا للحكومة والحزب الحاكم.

على الرغم من أن مخاوف الإحيائيين الزيديين من محاولات سلفية أو وهابية لاستئصالهم هي مبالغ فيها، فإنها تحوي لب الحقيقة وأدت لفعل انعكاسي في سبيل الدفاع عن النفس. بالنسبة للدولة، لا يصح أن يكون الرد المناسب هو الإقصاء والقمع، بل التساهل والاحتواء. إن من شأن هذا أن يستتبع جهوداً متضافرة للتركيز على الإسهامات الإيجابية للتاريخ الزيدي والهاشمي في الهوية اليمنية، إضافة إلى إدراج التفسيرات الدينية الزيدية ضمن الكتب المدرسية. على سبيل المثال، يُمكن للإذاعة والتلفاز الرسميين أن يبتنا بانتظام مؤتمرات أو خطب علماء الدين الزيديين، وأن ينقل آراءهم بل وحتى يُشجعا المؤتمرات الجامعة للطوائف والخطب المنادية بالترحم الديني.²⁰³

ب. إعادة استيعاب الحوثيين في السياسة

على الرغم من انقضاء خمس سنوات على بداية الحرب، لا يزال من الصعب تحديد أهداف المتمردين. إذ إن القادة الحوثيين لم يسبق وأن ذكروها صراحة، مقصرين أنفسهم على رفض مزاعم الحكومة. إن فشلهم في صياغة برنامج سياسي متماسك قوياً من الشائعات بوجود مشاريع سرية سياسية وطائفية لديهم وكذلك بعمالتهم للخارج. ولو أراد المتمردين تيسير حل هذا الصراع، سيتعين عليهم تقديم قائمة بمطالبهم وشكاوهم على نحو مقنع - كتخلف صعدة وإقصائها ووصم الهويتين الزيدية والهاشمية واعتقال وتغييب المقاتلين الحوثيين والشخصيات السياسية والمفكرين المتحالفين معهم والفشل الحكومي في تعويض ضحايا الحرب على نحو مرض.²⁰⁴

على نطاق أوسع، فإن مفتاح السلام الدائم سيكون على الأرجح استيعاب الحركة الحوثية كحزب سياسي أو كحركة زيدية إحيائية

VI. إحلال سلام دائم

تتفق الأطراف المتحاربة والمراقبون المستقلون على أمر واحد: في ظل الظروف الحالية، ليس اندلاع جولة سادسة من الحرب سوى مسألة وقت. لقد كان استحقاق الانتخابات البرلمانية في نيسان/إبريل 2009 باعثاً على الارتياح، حيث آمن الكثير من المراقبين أن الحكومة سترغب بتجنب تجدد المواجهات قبيل عمليات الاقتراع. إلا أن كلاً من الرئيس صالح والمعارضة أعلنوا في 22 شباط/فبراير تأجيل الانتخابات مدة عامين، مزيلين بذلك عقبة في وجه استمرار الحرب.¹⁹⁷ تعاضمت المخاوف بعد أن سرت شائعات (تعذر التحقق من صحتها) عن صفقة قدرها 1 مليار دولار مع روسيا، والتي إن صحت سيكون من شأنها إعادة تقوية الجيش.¹⁹⁸ في الوقت نفسه، استعرض القادة الحوثيون قدرتهم على حشد أعداد كبيرة من المناصرين، إذ قاموا خلال حرب غزة في كانون الثاني/يناير بتنظيم مظاهرات معادية لإسرائيل وزاخرة بشعارات الشباب المؤمن التقليدية. ويوم عيد المولد النبوي في آذار/مارس، نظم المتمرّدون مسيرة تفيد التقارير أن عشرات الآلاف حضروها، وتحديث فيها عبد الملك الحوثي مندداً بتحالف اليمن مع الولايات المتحدة ومحدراً الحكومة أنها ستخسر إن هي قامت بشن هجوم جديد.¹⁹⁹

في آذار/مارس كذلك، أعلن المتحدث باسم المتمردين صالح هبرة أن: "الحرب ليست في صالح أحد" ولكنه مضى إلى اتهام الحكومة بالإعداد لجولة سادسة.²⁰⁰ بعد مرور أسبوعين، أشارت وسائل الإعلام الرئيسية التابعة للجيش إلى الحوثيين بوصفهم "مجموعة مخربة ومحرضة على الفتنة" واتهمتهم بالسعي إلى "نشاطات إرهابية" و"قمع المجتمعات المحلية والعائلات".²⁰¹ اندلعت مناوشات خطيرة في أول نيسان/إبريل بين المتمردين ووحدات الجيش في مديريات غمر ورازح²⁰² بمحافظة صعدة واستمرت عدة أسابيع. وعلى الفور، اتهم كل طرف الآخر بخرق اتفاق السلام. هنالك العديد من الخطوات اللازمة للحلولة دون تجدد الحرب.

أ. ردم الفجوة الطائفية

إن تصوير المسلحين الحوثيين في كل من وسائل الإعلام والخطاب الرسمي كعملاء لمؤامرة شيعية أوسع للاستيلاء على البلاد لا أساس له من الصحة في جزئه الأكبر، كما أنه يُعد خطيراً في سياق الاستقطاب الطائفي الإقليمي المتنامي. وعضواً عن

الذي حققته مع السكان". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد ثابت، صنعاء، 21 آذار/مارس 2009.

¹⁹⁷ "الحياة"، 26 شباط/فبراير 2009.

¹⁹⁸ رويترز، 28 شباط/فبراير 2009. نفى الجيش هذه الشائعة. "26

سبتمبر"، 26 شباط/فبراير 2009.

¹⁹⁹ مأرب برس، 10 آذار/مارس 2009.

²⁰⁰ الإشرافي. نت (الموقع الإلكتروني الإخباري للحزب الاشتراكي

اليمني)، 15 آذار/مارس 2009.

²⁰¹ "26 سبتمبر"، 2 نيسان/إبريل 2009.

²⁰² نيوز يمن، 2 نيسان/إبريل 2009.

²⁰³ يبدو موقف الرئيس صالح متأرجحاً. إذ على الرغم من كونه يتحدر من أصول زيدية، فقد بنى مسجداً ضخماً افتتح في تشرين الثاني/نوفمبر 2008، بناه بالآذان السني بدلاً من الزيدي. ولم يكن أي من رجال الدين الذين اختارهم للعمل فيه من فروع دينية مختلفة مرتبطاً بالزيدية. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في وزارة الأوقاف الدينية، صنعاء، 21 آذار/مارس 2009. تفيد التقارير أن إدارة المسجد كثيراً ما دعت علماء زيديين لإلقاء خطبة الجمعة، وهي مبادرة تستحق الثناء والاحتفاء بها في مساجد أخرى. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مفكر وعضو في حزب المؤتمر الشعبي العام، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

²⁰⁴ اتخذ المتمرّدون خطوات أولية في هذا الاتجاه عام 2007، حين أسسوا موقع المنبر الإلكتروني. واليوم كثيراً ما يرسل كل من عبد الملك الحوثي وصالح هبرة تقاريرهما إلى صحفيين مقبمين في صنعاء عن الوضع في محافظة صعدة، ويدليان بأسماء ويقدمان تقديرات لعدد الإصابات. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي مستقل، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009.

التوترات الطائفية أقل بروزاً.²⁰⁹ ويمكن أن تكون الخطوات الأولية جارية في هذا الاتجاه حالياً. ووفقاً لأحد الصحفيين:

منذ شهر رمضان [أيلول/سبتمبر] 2008، تحول الحوثيون من العنف إلى العمل الاجتماعي والثقافي والديني حتى حينما كان تركيزهم منصباً على قضايا السياسة الخارجية. إن هذه الاتجاه هو من صنع عبد الملك الحوثي في المقام الأول، بيد أننا لا نعرف موقف القادة الآخرين بعد.²¹⁰

ج. تشجيع مبادرات المجتمع المدني

منذ البداية، كانت ردود الفعل الصامتة من طرف المجتمع المدني والمعارضة ووسائل الإعلام سمة هامة ومؤسفة لحرب صعدة. بقيت الانتقادات والتحليل المتعمق لأفعال المتحاربين نادرة، ويعود ذلك في جزء منه إلى الفراغ الإعلامي وفي جزء آخر إلى الخوف من قمع الدولة. كذلك كان رد الفعل الشعبي خجولاً، فيما يمكن اعتباره صورة عن نجاح الحكومة في وصم الحوثيين كمجرمين وإرهابيين.²¹¹

هناك بعض الاستثناءات البارزة. في بداية الحرب، عمدت المنظمات المتصلة بالحوثيين إلى توثيق وإدانة انتهاكات حقوق الإنسان ذات العلاقة بالحرب في صعدة على الرغم من ضغوطات الحكومة على أعضائها.²¹² وفي الأونة الأخيرة، شكلت مجموعة من المنظمات اليمنية تحالفاً باسم "معاً ضد حرب صعدة"، واختاروا أبو بكر السقاف، المفكر غير الزيدي، قائداً له لدحض فكرة دعمهم للمتمردين.²¹³ وقد التقى النشطاء بمسؤولين حكوميين ونظموا اعتصامات أمام البرلمان ومبنى الرئاسة ودعوا للإفراج عن المحتجزين.²¹⁴ عام 2008، عقدت عدة منظمات غير حكومية مؤتمرات للفت الانتباه ومناقشة قضايا تتعلق بالحرب.²¹⁵

دينية-ثقافية، أو الخيارين معاً. إن إعادة دمج المعارضين السابقين داخل بنية الدولة على هذا النحو لن يكون غير مسبوق. إذ إن كلاً من الحرب الأهلية في أعوام الستينيات وحرب الانفصال عام 1994 شهدت نتائج مماثلة في الاجتذاب المطرد للعديد من قادة المتمردين إلى مؤسسات الدولة. والواقع أن مجموعة من الجهات الحكومية والمعارضة أيدت تحول المتمردين إلى حزب سياسي، وهو خيار قال الرئيس صالح نفسه إنه يحببه.²⁰⁵ وبالمثل، فإن علي الأنسي، رئيس جهاز الأمن القومي ومدير مكتب رئاسة الجمهورية ادعى أن تحول الحوثيين إلى حزب سياسي هو شرط مسبق للسلام، شريطة أن يحترم الحزب الدستور وألا يكون قائماً على التمييز ضد الطوائف الأخرى.²⁰⁶ ووفقاً لكلمات صحفي مُطلع:

الحوثيون في الواقع حزب سياسي، ولكنه حزب يرفض تعريف نفسه على ذلك النحو. إنهم يمثلون قوة وعدداً كبيراً من الناس. لديهم أتباع ليس فقط في صعدة ولكن في العديد من المحافظات الأخرى أيضاً. ولذلك فمن الضروري لهم أن يرسخوا وجودهم كبنية سياسية مؤسسية.²⁰⁷

حتى الساعة، أبدى القادة الحوثيون معارضتهم لهذا الخيار. ويوضح الصحفي نفسه:

إن وجهة نظرهم هي أن الأحزاب السياسية قد فشلت وأن الظروف الراهنة لا تسمح بالمنافسة الحرة والنزيهة. رفض عبد الملك الحوثي الفكرة صراحة لأنه يريد للحرب أن تستمر بشكلها كحرب للدفاع عن النفس. لقد قال إنه لو صاغ برنامجاً سياسياً لبدأ الناس بالقتال للدفاع عنه، وهذا ما يرفضه هو.²⁰⁸

قد يفضل قادة المتمردين سيناريو مختلفاً يركزون فيه على النشاطات الدينية الزيدية، مفترضين تسامح الدولة والأطراف الأخرى، بالأخص الجماعات السلفية، مع التنوع الديني. بطريقة ما، سيمثل هذا عودة إلى أعوام التسعينيات حين أقام الشباب المؤمن نشاطات تربوية صيفية ناجحة حين كانت

²⁰⁹ برنارد هيكل، "صحوة زيدية؟"، "يمن أديت"، رقم 36 (1995).
²¹⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نبيل الصوفي، صحفي مستقل، رئيس تحرير مجلة "أبواب" الشهرية، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009.

²¹¹ إن التعقيم الإعلامي الذي فرضته الحكومة على الحرب أدى لأن تعتمد التغطية الإعلامية والنقاش العام على معلومات مجتزأة وإشاعات غير مثبتة. وتكثر الأمثلة عن ادعاءات غير مُسندة (وأحياناً سخيفة). يوم 21 نيسان/إبريل 2005، صورت صحيفة "الشموع" الأسبوعية الصادرة في صنعاء والمقربة من بعض ضباط الجيش، صورت الحوثيين كعملاء للماسونية العالمية؛ ومن جهة أخرى، سرت شائعات تفيد بمشاركة هائلة للقاعدة في صفوف الجيش خلال الجولة الرابعة في 2007.

²¹² هكذا كان حال المنظمة اليمنية للدفاع عن الحقوق الديمقراطية والحريات على نحو خاص. حيث شكلها عام 1993 محمد عبد الملك المتوكل، وهو مفكر بارز ذو خلفية هاشمية وأستاذ في العلوم السياسية بجامعة صنعاء.

²¹³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط في حقوق الإنسان، صنعاء، 20 كانون الثاني/يناير 2009.

²¹⁴ "صوت الشورى" (صحيفة يومية أسبوعية تصدر في صنعاء)، 1 كانون الأول/ديسمبر 2008.

²¹⁵ على سبيل المثال، يوم 28 حزيران/يونيو 2008، عقدت منظمة منتدى حوار غير الحكومية مؤتمراً حول الحلول الممكنة لقضية صعدة،

²⁰⁵ "الحياة"، 28 آذار/مارس 2009.

²⁰⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع علي الأنسي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

²⁰⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي مرتبط بالحزب الاشتراكي اليمني، صنعاء، 17 كانون الثاني/يناير 2009.

²⁰⁸ المصدر السابق نفسه. يرد يحيى الحوثي قائلاً إن تناقضات النظام السياسي هي العائق الأساسي في وجه تحول الحوثيين: "لقد خضنا تجربة حزب الحق حين عملنا في صفوفه في مطلع التسعينيات. لقد كان مجهوداً عقيماً. لم يرغب أحد بالاستماع إلينا. حاولت الحكومة التلاعب بنا، خاصة حين عينت أحمد الشامي وزيراً للأوقاف عام 1997. لهذا قررنا أن نصبح مستقلين وأن نرفض أي نظام حزبي، ومن ثم كونا الشباب المؤمن". مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات، برلين، 3 شباط/فبراير 2009. في عام 1997 قوبل تعيين أحمد الشامي، أمين عام حزب الحق، كوزير للأوقاف بانتقادات من قادة الشباب المؤمن، بمن فيهم حسين الحوثي الذي ترك الحزب ليؤسس حركته الخاصة. سامي دورليان، "الصباغات الجديدة للزيدية في الهوية الاجتماعية والسياسية المعاصرة"، "Chroniques Yéménites"، رقم 15 (2008)، ص. 164.

إن الكيفية التي تُنظَّم بها المساعدات هي قضية هامة أيضاً. يجب أن يكون الدعم مخصصاً لمشاريع إعادة إعمار تُحددها كل من الحكومة والمتمردين وأفراد من المجتمع المدني؛ وعلى هذا أن يكون مسبقاً يسمح مستقلاً لحجم الدمار والإصابات. وللقيام بكلتا المهمتين، ينبغي تأليف لجنة وساطة وإعادة بناء شاملة تضم ممثلين عن الحكومة وحركة التمرد والمجتمع المدني ومجتمع المانحين الدوليين. وينبغي أن تهدف مشاريع التنمية ذات الأولوية - كالصحة والتعليم والصرف الصحي والنقل - إلى تحسين حياة المدنيين. يُمكن لحوافز الاستثمار الخاص، خاصة في القطاع الزراعي صاحب الكثافة العالية في اليد العاملة، أن تدعم التنمية طويلة الأجل. وإذ ينبغي لعود المساعدة في جزئها الأكبر أن تشجع الأطراف على التوصل لتسوية دائمة، يُمكن لبعض التمويل أن يبدأ مباشرة بغية تخفيف المعاناة وكذلك لإظهار الفوائد التي يمكن جنيهاً لدى تعزيز الاستقرار.

إقليمياً، هناك دروس ينبغي استخلاصها من التجربة القطرية حسنة النية. فبسبب تعارض هذه التجربة مع المصالح السعودية المفترضة، سعى البعض في قيادة المملكة إلى تقويض الجهود المبذولة، على الرغم من أن ذلك هدد استقرار اليمن وأن جميع دول الجزيرة العربية لها مصلحة في استقراره نظراً لوجود جاليات يمنية مهاجرة كبيرة بينها والمخاطر التي يمكن أن تنتقل نتيجة تمزق البلاد. إن اندماج الفرعين السعودي واليمني لتنظيم القاعدة مطلع عام 2009 (مما أدى لنشوء تنظيم القاعدة في جزيرة العرب والذي يختبئ قادته في اليمن) هو دلالة أخرى على ترابط الأمن الإقليمي.²¹⁹ يتعين على دول الخليج أن تتصرف على نحو جماعي، على الأرجح من خلال مجلس التعاون الخليجي الذي يطمح اليمن لأن يصبح عضواً فيه.²²⁰ وأما بالنسبة للحكومات الغربية، فينبغي على تدخلها أن يهدف لتوفير بيئة مواتية للمفاوضات عن طريق

لم تنجح أي من هذه الجهود في تحدي الخطاب الرسمي بفاعلية أو في التأثير على النقاش العام، وهي لا تزال هامشية، مسموحاً بها ولكن غير فعالة، بل يُسمح بها لكونها غير فعالة. ليس هذا سبباً للتخلي عن هذه الجهود، إذ إنها تُعدُّ مفتاحاً لتحسين معلومات العامة والطعن في الخرافات لدى كلا الجانبين وبناء الثقة بين المتحاربين عن طريق تأسيس منابر للتعبير والنقاش الحرّين. يمكن للمنظمات المحلية وغير المرتبطة بأي طرف المساعدة في تأمين تقديرات موثوقة لحجم الدمار والإصابات والمساعدة في مشاريع إعادة الإعمار،²¹⁶ معززة بذلك مصداقيتها في عيون المتمردين والعالم.²¹⁷

د. دور دولي جديد

في الأساس، كانت الجهود الدولية على نوعين: تدخل إقليمي (بنية حسنة في بعض الأحيان ولكنها عاجزة عن حل النزاع) وجهود إنسانية (في المقام الأول وكالات الأمم المتحدة ومنظمات إنسانية دولية). إن وجود دور دولي سياسي أكثر إيجابية واستعدادية يُعدُّ أمراً ضرورياً. سيتطلب هذا تغييراً في النظرة إلى طبيعة الحرب وفهماً أكثر دقة للمخاطر التي تمثلها.

بالتنسيق مع اللاعبين الإقليميين (بالأخص دول مجلس التعاون الخليجي) ولجان الوساطة وإعادة الإعمار اليمنية القائمة، يتعين على الحكومات الغربية أن تأخذ باعتبارها عدة خطوات: الضغط على الحكومة لإنهاء تعميمها الإعلامي وتمكين وسائل الإعلام والباحثين المستقلين ومنظمات حقوق الإنسان ومعظم الوكالات الإنسانية من الوصول إلى المناطق المتضررة بالحرب؛ والضغط على القيادة الحوثية لصياغة مطالب عملية، وأن تنوه بدعمها لتسوية قائمة على التفاوض، وأن تتعهد بالمساعدة في إعادة الإعمار وتؤمن دعماً دبلوماسياً كوسيلة لدفع الأطراف إلى طاولة المفاوضات مرة أخرى. إن النقطة الأخيرة ذات أهمية خاصة: على الدول المانحة تقديم وعد بمساعدة تنموية طويلة الأمد للمناطق المُهملة مثل صعدة كحافز لإنهاء الحرب.²¹⁸

ممثل إحدى الدول المانحة الرئيسية: "يمكن توفير أموال إضافية لدعم مشروعات متصلة بالمياه والصحة والتربية حالما يصبح لدينا شعور بأن العملية السياسية بين الحكومة والحوثيين قد بدأت بالفعل". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، دبلوماسي غربي، صنعاء، 14 كانون الثاني/يناير 2009.

²¹⁹ موقع الجزيرة إنترناشيونال الإلكتروني، 28 كانون الثاني/يناير 2009.

²²⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي عربي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009. لا يزال النقاش مستمراً لعدة سنوات بشأن انضمام اليمن إلى مجلس التعاون الخليجي. ويعارضه كل من الكويت والمملكة العربية السعودية على نحو تقليدي فيما يبدو أنه انتقام من اليمن لرفضه إدانة غزو العراق للكويت خلال حرب الخليج عامي 1990-1991. بيد أن موافقهما تبدو وكأنها تغيرت منذ عام 2007، واليوم تبدو أمانة سر المجلس وأعضاؤه داعمين لانضمام اليمن. ولكن هكذا خطوة لن تدخل حيز التنفيذ حتى عام 2017، كما أنها تتوقف على إصلاحات بنوية سياسية واقتصادية تقوم بها حكومة اليمن. غريغوري جونسن: "اليمن: الإصلاحات الاقتصادية الجوفاء تؤخر طلب الانضمام لمجلس التعاون الخليجي"، *Arab Reform Bulletin*، الجزء 5، رقم 1 (2007).

ويوم 19 آب/أغسطس نظمت صحيفة "يمن تايمز" المستقلة والمنشورة بالإنكليزية مؤتمراً عن المعتقلين والمغيبين.

²¹⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع خبير تنمية دولي، صنعاء، 4 كانون الثاني/يناير 2009.

²¹⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي غربي، صنعاء، كانون الثاني/يناير 2009.

²¹⁸ يؤكد محمد ثابت، مدير صندوق صعدة لإعادة الإعمار: "في مطلع عام 2009، أعلنت كل من بريطانيا العظمى وإيطاليا عن مساعدات تصل قيمتها إلى 7 ملايين دولار، غير أنها مخصصة على نحو رئيسي لتوزيع الغذاء والاستجابة لمطالب أخرى ملحة. ليست هذه المشكلة الأساسية في صعدة الآن. لقد عاد اللاجئون إلى قرأهم والتكافل الاجتماعي يلعب دوراً كبيراً في معالجة المطالب الملحة. إن إعادة الإعمار والتنمية هما ما يحتاجه الناس فعلاً. إن الاستجابة للمطالب الملحة هي أمر هام، ولكنها لن تحل الصراع على المدى الطويل". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 21 آذار/مارس 2009. كان المانحون مترددين في تقديم موارد إضافية لانعدام ثقتهم في أن الحرب انتهت حقيقة، على الرغم من تصريحات الرئيس صالح بذلك. يقول

تشجيع الحوار في الوقت الذي تدعم فيه مساعي إعادة الإعمار والمصالحة والتنمية.²²¹

VII. خلاصة

منذ توحيد الشمال والجنوب في أيار/مايو 1990، واليمن يواجه تحديات خطيرة قوضت قدرة الدولة على الحكم. وفي حين أن سيناريو الدولة الفاشلة هو مثار قلق ونقاش،²²² حتى بالنسبة للمسؤولين اليمنيين،²²³ فإن النظام قد استطاع حتى اللحظة الحفاظ على حكمه وكذلك على الاستقرار العام في البلاد. تُعدُّ حرب صعدة نمطاً آخر إذ إنها – مع غيرها من الاتجاهات السلبية، بما في ذلك الأزمة الاقتصادية ونضوب موارد النفط والمياه والسخط المتجدد والمتصاعد لدى سكان اليمن الجنوبي السابق – تهدد قدرة الدولة على المواجهة والنجاة.

لقد بقيت حرب صعدة فترة طويلة موضع تجاهل المجتمع المدني والمعارضة وعامة الناس والمجتمع الدولي. مع ذلك، وعلى الرغم من السلام المُعلن رسمياً، فإن الوضع لا يزال هشاً للغاية. والمظالم الكامنة ذات الأولوية لا تلقى استجابة حتى الآن. يتعين على جميع الأطراف التصدي مباشرة لجذور الصراع، الاجتماعية منها والسياسية والدينية.

تقع المسؤولية الكبرى على عاتق الأطراف المحلية، مستقلة كانت أم مرتبطة بالحكومة أو المتمردين. إنهم هم من يجب أن يتخذوا خطوات لتخفيف الاحتقان الطائفي وتيسير إعادة استيعاب الحوثيين المُبعدين، وإطلاق سراح السجناء المتصلين بالحرب وأن يكفوا عن اللعب بورقة الولاءات القبلية الخطيرة. غير أن للمجتمع الدولي دوراً هاماً ليضطلع به هو الآخر. ويمكنه تحقيق ذلك بتوظيف نفوذه السياسي والتعهد بزيادة المساعدات لإعادة الإعمار والتنمية بغية تعزيز البيئة المُفضية إلى السلام الدائم.

صنعاء/بروكسل، 27 أيار/مايو 2009

²²² جيريمي شارب، "أين هي النقطة الحاسمة في الاستقرار؟"، Arab

Reform Bulletin، تموز/يوليو 2008.

²²³ على سبيل المثال، في آذار/مارس 2009، أكد عبد الكريم الأرحبي، نائب رئيس وزراء اليمن ووزير التخطيط، أنه كي يستطيع اليمن النجاة من مصير مماثل لمصير الصومال، سيكون بحاجة إلى انخراط دولي أكبر: "أنظر إلى الصوماليين – إنهم عدة ملايين من الناس، ولكنهم يسببون المشاكل للعالم بأسره. يبلغ تعداد اليمنيين 24 مليون شخص، وهم محاربون أشداء. وليس لديهم ما يخسرونه، مثلهم في ذلك مثل الصوماليين". وكالة فرانس برس، 13 آذار/مارس 2009.

²²¹ إن المبالغ الرسمية اللازمة لإعادة إعمار وتنمية صعدة (700 مليون دولار لأعوام 2009-2012، وفقاً لكلام الحكومة اليمنية) ليست كبيرة جداً، ووفقاً لقول أحد نشطاء المجتمع المدني فهي "لا تعدو كونها نفود فكة بالنسبة لدول الخليج." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صنعاء، 8 كانون الثاني/يناير 2009.

الملحق ب

خارطة اليمن مع المدن والمحافظات



- | | | |
|---------------|----------------|------------|
| 1. Aden | 8. Al-Mahra | 15. Lahij |
| 2. Amran | 9. Al-Mahwit | 16. Marib |
| 3. Abyan | 10. Sanaa City | 17. Rayma |
| 4. Al-Dhala | 11. Dhamar | 18. Saada |
| 5. Al-Baydha | 12. Hadramawt | 19. Sanaa |
| 6. Al-Hudayda | 13. Hajja | 20. Shabwa |
| 7. Al-Jawf | 14. Ibb | 21. Taiz |

وضعها مجموعة الأزمات

الملحق ج

خريطة مناطق محافظة صعدة

